بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحَمْدَ لله، نَحْمَدُه، ونستعينُه، ونستغفرُهُ، ونعوذُ به مِن شُرُورِ أنفُسِنَا، وَمِنْ سيئاتِ أعْمَالِنا، مَنْ يَهْدِه الله فَلا مُضِلَّ لَهُ، ومن يُضْلِلْ، فَلا هَادِيَ لَهُ. وأَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدا عبْدُه ورَسُولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إلا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء:١]. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلا سَدِيدًا. يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

أما بعد:

فبين أيدينا أجل كتب ابن الأبار وأعظمها فائدة. وكلمة السِيرَاء جاء في الحديث: "أهدَى له أُكَيْدِرُ دُومةَ حُلَّة سيرَاء". السِيرَاء بكسر السين وفتح الياء والمدّ: نَوْع من البُرُودِ يُخالِطه حَرير، كالسُّيور فهو فِعَلاءُ من السَّيْر: القِدّ. هكذا يُرْوَى على الصِفة. وقال بعضُ المتأخرين: إنما هو حُلَّةَ سِيرَاء على الإضافة، واحْتَجَّ بأن سِيبَويه قال: لم يأتِ فِعَلاءُ صفة، ولكن اسْما، وشَرَحَ السِيرَاءَ بالحرير الصافي، ومعناه: حُلَّةَ حرير. ومنه: "أنه أعْطَى عَلِيّا بُرْدا سِيرَاءَ وقال: اجْعَلْهُ خُمُرا"، ومنه حديث عمر: "أنه رأى حُلة سِيرَاءَ تُباع فقال: لو اشْتَريتها".

ومنه حديثه الآخر: "إنَّ أحدَ عُمَّاله وفَدَ إليه وعليه حُلَّة مُسَيَّرة". أي: فيها خطوط من إبْرَيْسَم كالسُّيورِ، ويُروى عن علي حديث مثله. وقال ابن الأثير: هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور.

وألف ابن الأبار كتابه هذا أثناء عمله في خدمة السلطان أبي زكريا الحفصي صاحب تونس، وهو في فاتحته يتحدث عن أبي زكريا وولي عهده: أبي يحيى المتوفى في حياة أبيه سنة ٦٤٦هـ وفي الكتاب إشارة إلى أنه كان لا يزال مشتغلاً بتأليف هذا الكتاب في تلك السنة،

وقد صنفه تمجيداً لشاعرية السلطان أبي زكريا وولي عهده، وتدليلاً على أن قول الشعر من خصال كبار الخلفاء والسلاطين والأمراء، وترجم فيه لمن عرف بقرض الشعر من رجالات المغرب والأندلس، ورتبه على القرون، مبتدئاً بالقرن الأول الهجري، وحتى منتصف القرن السابع.

ولعله أتمه قبل وفاة أبي زكريا، ولكن العجلة التي تبدو في الباب الأخير من الكتاب تدل أنه أتمه بعد ذلك بمدة قصيرة، وفي الغالب أيام إقامته الثانية في (بجاية)[1]، فنجى من الدمار الذي ناله ونال كتبه بسبب غضب المستنصر ابن أبي زكريا عليه بعد وشاية الوزير الغساني بما عثر عليه في كتاب (التاريخ) لابن الأبار، من الإساءة للمستنصر، فأمر بقتله قعصاً بالرماح، وأن يحرق بعد قتله هو وكتبه ودواوينه.

---

(١) بجاية بالكسر وتخفيف الجيم وألف وياء وهاء: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، كان أول من اختطها الناصر بن علناس بن حماد بن زيري بن مناد بن بلكين في حدود سنة ٧٥٤ هـ بينها وبين جزيرة بني مزغناي أربعة أيام، كانت قديما ميناء فقط، ثم بنيت المدينة، وهي في لحف جبل شاهق وفي قبلتها جبال، كانت قاعدة ملك بني حماد، وتسمى الناصرية أيضا باسم بانيها [معجم البلدان: ١/ ٣٧٩].

مقدمة في الشعر

الشعر وأدواته:

الشعر كلام منظوم، بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم، بما خص به من النظم الذي إن عدل عن جهته مجته الأسماع، وفسد على الذوق. ونظمه معلوم محدود، فمن صح طبعه وذوقه لم يحتج إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض التي هي ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن من تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به، حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه. وللشعر أدوات يجب إعدادها قبل مراسه وتكلف نظمه. فمن تعصت عليه أداة من أدواته، لم يكمل له ما يتكلفه منه، وبان الخلل فيما ينظمه، ولحقته العيوب من كل جهة.

فمنها: التوسع في علم اللغة، والبراعة في فهم الإعراب، والرواية لفنون الآداب، والمعرفة بأيام الناس وأنسابهم، ومناقبهم ومثالبهم، والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر، والتصرف في معانيه، في كل فن قالته العرب فيه؛ وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها، والسنن المستدلة منها، وتعريضها، وإطنابها وتقصيرها، وإطالتها وإيجازها، ولطفها وخلابتها، وعذوبة ألفاظها، وجزالة معانيها وحسن مبانيها، وحلاوة مقاطعها، وإيفاء كل معنى حظه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة. واجتناب ما يشينه من سفاسف الكلام وسخيف اللفظ، والمعاني المستبردة، والتشبيهات الكاذبة، والإشارات المجهولة، والأوصاف البعيدة، والعبارات الغثة، حتى لا يكون متفاوتا مرقوعاً، بل يكون كالسبيكة المفرغة، والوشي المنمنم والعقد المنظم، واللباس الرائق، فتسابق معانيه ألفاظه، فيلتذ الفهم بحسن معانيه كالتذاذ السمع بمونق لفظه، وتكون قوافيه كالقوالب لمعانيه، وتكون قواعد للبناء يتركب عليها ويعلو فوقها، فيكون ما قبلها مسوقاً إليها، ولا تكون مسوقة إليه، فتقلق في مواضعها، ولا

توافق ما يتصل بها، وتكون الألفاظ منقادة لما تراد له، غير مستكرهة، ولا متعبة، لطيفة الموالج، سهلة المخارج.

وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذي به تتميز الأضداد، ولزوم العدل وإيثار الحسن، واجتناب القبيح، ووضع الأشياء مواضعها.

صناعة الشعر:

إذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه. فإذا اتفق له بيت يشاكل المعنى الذي يرومه أثبته، وأعمل فكره في شغل القوافي بما تقتضيه من المعاني على غير تنسيق للشعر وترتيب لفنون القول فيه؛ بل يعلق كل بيت يتفق له نظمه، على تفاوت ما بينه وبين ما قبله. فإذا كملت له المعاني، وكثرت الأبيات وفق بينها بأبيات تكون نظاماً لها وسلكاً جامعاً لما تشتت منها. ثم يتأمل ما قد أداه إليه طبعه ونتجته فكرته، يستقصي انتقاده، ويرم ما وهيَّ منه، ويبدل بكل لفظة مستكرهة لفظة سهلة نقية، وإن اتفقت له قافية قد شغلها في معنى من المعاني، واتفق له معنى آخر مضاد للمعنى الأول، وكانت تلك القافية أوقع في المعنى الثاني منها في المعنى الأول، نقلها إلى المعنى المختار الذي هو أحسن، وأبطل ذلك البيت أو نقض بعضه، وطلب لمعناه قافية تشاكله، ويكون كالنساج الحاذق الذي يفوت وشيه بأحسن التفويت ويسديه وينيره ولا يهلهل شيئاً منه فيشينه، وكالنقاش الرقيق الذي يضع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه، ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان، وكناظم الجوهر الذي يؤلف بين النفيس منها والثمين الرائق، ولا يشين عقوده، بأن يفاوت بين جواهرها في نظمها وتنسيقها. وكذلك الشاعر إذا أسس شعره على أن يأتي فيه بالكلام البدوي الفصيح لم يخلط به الحضري المولد، وإذا أتى بلفظة غريبة أتبعها أخواتها، وكذلك إذا سهل ألفاظه لم يخلط بها الألفاظ الوحشية النافرة الصعبة القيادة، ويقف على مراتب القول، والوصف في فن بعد فن، ويتعمد الصدق والوفق في تشبيهاته وحكاياته، ويحضر لُبه عند كل مخاطبة ووصف، فيخاطب الملوك بما يستحقونه من جليل

المخاطبات، ويتوقى حطها عن مراتبها، وأن يخلطها بالعامة، كما يتوقى أن يرفع العامة إلى درجات الملوك. ويعد لكل معنى ما يليق به، ولكل طبقة ما يشاكلها، حتى تكون الاستفادة من قوله في وضعه الكلام مواضعه أكثر من الاستفادة من قوله في تحسين نسجه وإبداع نظمه.

ويسلك منهاج أصحاب الرسائل في بلاغاتهم، وتصرفهم في مكاتباتهم، فإن للشعر فصولا كفصول الرسائل، فيحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلص من الزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى، ومن الشكوى إلى الاستماحة، ومن وصف الديار والآثار إلى وصف الفيافي والنوق، ومن وصف الرعود والبروق إلى وصف الرياض والرواد ومن وصف الظلمان والأعيار إلى وصف الخيل والأسلحة، ومن وصف المفاوز والفيافي إلى وصف الطرد والصيد، ومن وصف الليل والنجوم إلى وصف الموارد والمياه والهواجر والآل، والحرابي والجنادب. ومن الافتخار إلى اقتصاص مآثر الأسلاف، ومن الاستكانة والخضوع إلى الاستعتاب والاعتذار، ومن الإباء والاعتياض إلى الإجابة والتسمح، بألطف تخلص وأحسن حكاية، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله، بل يكون متصلا به وممتزجاً معه، فإذا استقصى المعنى وأحاطه بالمراد الذي إليه يسوق القول بأيسر وصف وأخف لفظ لم يحتج إلى تطويله وتكريره.

والشعر على تحصيل جنسه ومعرفة اسمه، متشابه الجملة، متفاوت التفصيل، مختلف كاختلاف الناس في صورهم، وأصواتهم، وعقولهم، وحظوظهم وشمائلهم، وأخلاقهم، فهم متفاضلون في هذه المعاني، وكذلك الأشعار هي متفاضلة في الحسن على تساويها في الجنس؛ ومواقعها من اختيار الناس إياها كمواقع الصور الحسنة عندهم، واختيارهم لما يستحسنونه منها. ولكل اختيار يؤثره، وهوى يتبعه، وبغية لا يستبدل بها ولا يؤثر سواها.

ومن الأشعار أشعار محكمة متقنة الألفاظ حكيمة المعاني، عجيبة التأليف إذا نقضت وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها، ولم تفقد جزالة ألفاظها.

ومنها أشعار مموهة، مزخرفة عذبة، تروق الأسماع والأفهام إذا مرت صفحاً، فإذا حصت وانتقدت بهرجت معانيها، وزيفت ألفاظها، ومجت حلاوتها، ولم يصلح نقضها لبناء

يستأنف منه، فبعضها كالقصور المشيدة، والأبنية الوثيقة الباقية على مر الدهور، وبعضها كالخيام الموتدة التي تزعزعها الرياح، وتوهيها الأمطار، ويسرع إليها البلى، ويخشى عليها التقوض.

المعاني والألفاظ:

وللمعاني ألفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها، فهي لها كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسناً في بعض المعارض دون بعض.

وكم من معنى حسن قد شين بمعرضه الذي أبرز فيه، وكم معرض حسن قد ابتذل على معنى قبيح ألبسه.

وكم من صارم غضب قد انتضاه من وددت لو أنه انتضاه فهزه ثم لم يضرب به، وكم من جوهرة نفيسة قد شينت بقرينة لها بعيدة منها، فأفردت عن أخواتها المشاكلات لها، وكم من زائف وبهرج قد نفقا على نقادهما، ومن جيد نافق قد بهرج عند البصير بنقده فنفاه سهواً، وكم من زبر للمعاني في حشو الأشعار لا يحسن أن يطلبها غير العلماء بها، والصياقلة للسيوف المطبوعة منها.

وكم من حكمة غريبة قد أزدريت لرثاثة كسوتها، ولو جليت في غير لباسها ذاك لكثر المشيرون إليها، وكم من سقيم من الشعر قد يئس طبيبه من برئه، عولج سقمه فعاودته سلامته، وكم من صحيح جني عليه فأرداه حينه.

ملاءمة معاني الشعر لمبانيه:

وليست تخلو الأشعار من أن يقتص فيها أشياء هي قائمة في النفوس والعقول، فيحسن العبارة عنها وإظهار ما يكمن في الضمائر منها فيبتهج السامع لما يريد عليه مما قد عرفه طبعه وقبله فهمه، فيثار بذلك ما كان دفيناً ويبرز به ما كان مكنوناً، فينكشف للفهم غطاؤه، فيتمكن من وجدانه بعد العناء في نشدانه، أو تودع حكمة تألفها النفوس، وترتاح لصدق القول بها وما أتت به التجارب منها، أو تضمن صفات صادقة وتشبيهات موافقة، وأمثالاً مطابقة تصاب حقائقها، ويلطف في تقريب البعيد منها، فيؤنس النافر الوحشي حتى يعود مألوفاً

محبوباً، ويبعد المألوف المأنوس به حتى يصير وحشياً غريباً، فإن السمع إذا ورد عليه ما قد مَلَه من المعاني المكررة والصفات المشهورة التي قد كثر وردوها عليه مجه وثقل عليه رعيه، فإذا لطف الشاعر لثوب ذلك بما يلبسه عليه، فقرب منه بعيداً أو بعد منه قريباً، أو جلل لطفياً، أو لطف جليلاً أصغى إليه ودعاه واستحسنه السامع واجتباه.

وهذا تطريق إلى تناول المعاني واستعارتها، والتلطف في استعمالها على اختلاف جهاتها التي تتناول منها، أو تضمن أشياء يوجبها أحوال الزمان على اختلافه وحوادثه على تصرفها، فيكون فيها غرائب مستحسنة وعجائب بديعة مستطرفة، من صفات وحكايات ومخاطبات في كل فن توجبه الحال التي ينشأ قول الشعر من أجلها، فتدفع به العظائم وتسل به السخائم[1]، وتخلب به العقول، وتسحر به الألباب لما يشتمل عليه من دقيق اللفظ ولطيف المعنى. وإذ قد قالت الحكماء: إن للكلام الواحد جسداً وروحاً. فجسده النطق وروحه معناه، فواجب على صانع الشعر أن يصنعه صنعة متقنة، لطيفة مقبولة حسنة، مجتلبة لمحبة السامع له والناظر بعقله إليه، مستدعية لعشق المتأمل في محاسنه، والمتفرس في بدائعه، فيحسه جسماً ويحققه روحاً، أي: يتيقنه لفظاً، ويبدعه معنى، ويجتنب إخراجه على ضد هذه الصفة فيكسوه قبحاً ويبرزه مسخاً، بل يسوي أعضاءه وزناً، ويعدل أجزاءه تأليفاً، ويحسن صورته إصابه، ويكثر رونقه اختصاراً، ويكرم عنصره صدقاً، ويفيده القبول رقة ويحصنه جزالة، ويدنيه سلاسة وينأى به إعجازاً، ويعلم أنه نتيجة عقله، وثمرة لبه وصورة علمه، والحاكم عليه أوله.

---

(١) السَّخائِمُ: أي الحُقُودُ، وهي جمع (سَخِيمة)، وفي حديث: "من سَل سَخِيمتَهُ على طريق من طُرُق المسلمين لعنه الله". يعني: الغائظ [لسان العرب: ١٢/ ٢٨٢-٢٨٣].

أقسام الشعر

قسم ابن قتيبة الدينوري في كتابه "الشعر والشعراء" الشعر إلى أربعة أقسام:

١ - ضربٌ منه حسن لفظه وجاد معناه: كقول القائل في بعض بني أمية: [البسيط]

في كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ ... مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ ... فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

لم يقل في الهيبة شيءٌ أحسن منه.

وكقول أوس بن حجر: [المنسرح]

أَيَّتُهَا النَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا ... إِنَّ الَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

لم يبتدئ أحدٌ مرثيةً بأحسن من هذا.

وكقول أبي ذؤيب: [الكامل]

والنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغَّبْتَهَا ... وإِذَا تُرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

حدثني الرياشي عن الأصمعي، قال: هذا أبدع بيت قالته العرب.

وكقول حميد بن ثورٍ: [الطويل]

أَرَى بَصَرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صِحَّةٍ ... وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا

ولم يقل في الكبر شيءٌ أحسن منه.

وكقول النابغة: [الطويل]

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ الكَوَاكِبِ

لم يبتدئ أحدٌ من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب.

ومثل هذا في الشعر كثيرٌ، ليس للإطالة به في هذا الموضع وجهٌ.

٢ - وضربٌ منه حسن لفظه وحلا، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، كقول القائل: [الطويل]

ولَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِالأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ

وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهَارِى رِحَالُنَا ولا يُنْظُرُ الغَادِي الذي هُوَ رَائحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرافِ الأَحَادِيثِ بَيْنَنَا وسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

هذه الألفاظ كما ترى أحسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى، واستلمنا الأركان، وعالينا إبلنا الأنضاء، ومضى الناس لا ينتظر الغادي الرائح، ابتدأنا في الحديث وسارت المطي في الأبطح.

وهذا الصنف في الشعر كثيرٌ.

ونحوه قول المعلوط: [الكامل]

إنَّ الذين غَدَوْا بُلُبِّكَ غادَرُوا وَشَلاً بِعَيْنِكَ مَا يَزَالُ مَعِينَا
غَيَّضْنَ مِنْ عَبَرَاتِهِنَّ وقُلْنَ لي مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الهَوَى ولَقِينَا

ونحوه قول جرير: [الكامل]

يا أُخْتَ نَاجِيَةَ السَّلَامُ عَلَيْكُمُ قَبْلَ الرَّحِيلِ وقَبْلَ لَوْمِ العُذَّل
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ يَوْمُ الرَّحِيلِ فَعَلْتُ ما لم أَفْعَل

وقوله: [البسيط]

بَانَ الخَلِيطُ ولَوْ طُوِّعْتُ ما بَانَا وقَطَعُوا مِنْ حِبَالِ الوَصْلِ أَقْرَانَا
إِنَّ العُيُونَ التي في طَرْفِهَا مَرَضٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لم يُحْيِينَ قَتْلانَا
يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حتى لَا حَرَاكَ بِهِ وهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ أَرْكانَا

٣- **وضربٌ منه جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه**، كقول لبيد بن ربيعة: [الكامل]

ما عَاتَبَ المَرْءَ الكَرِيمَ كَنَفْسِهِ والمَرْءُ يُصْلِحُهُ الجَلِيسُ الصَّالِحُ

هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرونق.

وكقول النابغة للنعمان: [الطويل]

خَطَاطِيفُ حُجْنٌ في حِبَالٍ مَتِينَةٍ تَمُدُّ بِهَا أَيْدٍ إِلَيْكَ نَوَازِعُ

قال أبو مُحَمَّد: رأيت علماءنا يستجدون معناه، ولست أرى ألفاظه جياداً ولا مبينةً لمعناه، لأنه أراد: أنت في قدرتك على كخطاطيف عقفٍ يمد بها، وأنا كدلوٍ تمد بتلك الخطاطيف، وعلى أني أيضاً لست أرى المعنى جيداً.

وكقول الفرزدق: [الكامل]

والشَّيْبُ يَنْهَضُ في الشَّبَاب كأنَّه ... لَيْلٌ يَصِيحُ بجَانِبَيْهِ نَهَارُ

٤ - وضربٌ منه تأخر معناه وتأخر لفظه، كقول الأعشى في امرأةٍ:

وفُوهَا .... كَأَقَاحِيٍّ غَذَاهُ دَائِمُ الهَطْلِ

كما شِيبَ بِرَاحٍ بَا ... رِدٍ مِنْ عَسَلِ النَّحْلِ

وكقول: [المنسرح]

إنَّ مَحَلاً وإنَّ مُرْتَحَلا ... وإنَّ في السَّفْرِ مَا مَضَى مَهَلا

اسْتَأْثَرَ اللهُ بِالوَفَاءِ وَبِالْـ ... ـحَمْدِ وَوَلَّى المَلَامَةَ الرَّجُلا

والأَرْضُ هَمَّالَةٌ لَمَا حَمَّلَ اللَّـ ... ـهُ وَمَا إِنْ تَرُدُّ مَا فَعَلَا

يَوْماً تَرَاهَا كَشِبْهِ أَرْدِيَةِ الْـ ... عَصْبِ وَيَوْماً أَدِيمُهَا نَغِلَا

وهذا الشعر منحولٌ، ولا أعلم فيه شيئاً يستحسن إلا قوله:

يَا خَيْرَ مَنْ يَرْكَبُ المَطِيَّ ولَا ... يَشْرَبُ كَأْساً بِكَفِّ مَنْ بَخِلَا

يريد أن كل شاربٍ يشرب بكفه، وهذا ليس ببخيل فيشرب بكف من بخل، وهو معنًى لطيف.

وكقول الخليل بن أحمد العروضي: [المجتث]

إنَّ الخَلِيطَ تَصَدَّعْ ... فَطِرْ بِدَائِكَ أَوْقَعْ

لَوْلَا جَوَارٍ حِسَانٌ ... حُورُ المَدَامِعِ أَرْبَعْ

أُمُّ البَنِينَ وأَسْمَا ... ءُ والرَّبَابُ وبَوْزَعْ

لَقُلْتُ لِلرَّاحِلِ ارْحَلْ ... إِذَا بِدَا لَكَ أَوْ دَعْ

وهذا الشعر بين التكلف ردىء الصنعة. وكذلك أشعار العلماء، ليس فيها شيءٌ جاء عن إسماح وسهولة، كشعر الأصمعي، وشعر ابن المقفع وشعر الخليل، خلا خلف الأحمر، فإنه كان أجودهم طبعاً وأكثرهم شعراً. ولو لم يكن في هذا الشعر إلا أم البنين وبوزع لكفاه! فقد كان جررٌ أنشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته التي أولها: [الكامل]

بانَ الخَلِيطُ بِرَامَتَيْنِ فَوَدَّعُوا ... أَوَ كُلَّمَا جَدُّوا لِبَيْنٍ تَجْزَعُ

كَيْفَ العَزَاءُ ولم أَجِدْ مُذْ بِنْتُمُ ... قَلْباً يَقِرُّ ولا شَرَاباً يَنْقَعُ

وهو يتحفز ويزحف من حسن الشعر، حتى إذا بلغ إلى قوله:

وتَقُولُ بَوْزَعُ قَدْ دَبَبْتَ عَلَى العَصَا ... هَلاَّ هَزِئْتِ بِغَيْرِنَا يَا بَوْزَعُ

قال له: أفسدت شعرك بهذا الاسم وفتر.

قال أبو مُحَمَّد: وقد يقدح في الحسن قبح اسمه، كما ينفع القبيح حسن اسمه، ويزيد في مهانة الرجل فظاعة اسمه، وترد عدالة الرجل بكنيته ولقبه. ولذلك قيل: (اشفعوا بالكنى، فإنها شبهةٌ).

وتقدم رجلان إلى شريح، فقال أحدهما: ادع أبا الكويفر ليشهد، فتقدم شيخٌ فرده شريحٌ ولم يسأل عنه، وقال: (لو كنت عدلاً لم ترض بها)، ورد آخر يلقب أبا الذبان ولم يسأل عنه.

وسأل عمر رجلاً أراد أن يستعين به على أمرٍ عن اسمه واسم أبيه، فقال: ظالم بن سراق، فقال: (تظلم أنت ويسرق أبوك). ولم يستعن به.

وسمع عمر بن عَبْد العزيز رجلاً يدعو رجلاً: يأبا العمرين، فقال: (لو كان له عقلٌ كفاه أحدهما!) ومن هذا الضرب قول الأعشى: [البسيط]

وقَدْ غَدَوْتُ إلى الحَانُوتِ يتْبَعُني ... شَاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلِ

وهذه الألفاظ الأربعة في معنىً واحد، وكان قد يستغني بأحدها عن جميعها، وماذا يزيد هذا البيت أن كان للأعشى أو ينقص؟ وقول أبي الأسد، وهو من المتأخرين الأخفياء: [الطويل]

ولَائِمَة لَامَتْكَ يَا فَيْضُ في النَّدَى ... قُلْتَ لَهَا لَنْ يَقْدَحَ اللَّوْمُ في البَحْرِ

أَرَادَتْ لِتَثْنِي الفَيْضَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ مَوَاقِعُ مَاءِ المُزْنِ فِي البَلَدِ القَفْرِ

لتثنى الغيض عن عادة الندى ومن ذا الذي يثني السحاب عن القطر

مَوَاقِعُ جَوْدِ الفَيْضِ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ مَوَاقِعُ مَاءِ المُزْنِ فِي البَلَدِ القَفْرِ

كَأَنَّ وُفُودَ الفَيْضِ حِينَ تَحَمَّلُوا إِلَى الْفَيْضِ وَافَوْا عِنْدَةً لَيْلَةَ القَدْرِ

وهو القائل: [المنسرح]

لَيْتَكَ آذَنْتَنِي بِوَاحِدَةٍ تَكُونُ لِي مِنْكَ سَائِرَ الأَبَدِ

تَحْلِفُ أَلاَّ تَبَرَّنِي أَبَداً فَإِنَّ فِيهَا بَرْداً عَلَى كَبِدِي

إِنْ كَانَ رِزْقِي إِلَيْكَ فَارْمِ بِهِ فِي نَاظِرَيْ حَيَّةٍ عَلَى رَصَدِ

ومن هذا الضرب أيضاً قول المرقش: [السريع]

هَلْ بِالدِّيَارِ أَنْ تُجِيبَ صَمَمْ لَوْ أَنَّ حَيًّا نَاطِقاً كَلَمْ

يَأْبِي الشَّبَابُ الأَقْوَرِينَ ولاَ تَغْبِطْ أَخَاكَ أَنْ يُقَالَ حَكَمْ

والعجب عندي من الأصمعي، إذ أدخله في متخيره، وهو شعرٌ ليس بصحيح الوزن ولا حسن الروى، ولا متخير اللفظ، ولا لطيف المعنى ولا أعلم فيه شيئاً يستحسنُ إلا قوله:

النَّشْرُ مِسْكٌ والوُجُوهُ دنَا نِيرُ وأَطْرَافُ الأَكُفِّ عَنَمْ

ويستجاد منه قوله:

لَيْسَ عَلَى طُولِ الحَيَاةِ نَدَمْ وَمِنْ وَرَاءِ المَرْءِ مَا يُعْلَمْ

وكان الناس يستجيدون للأعشى قوله: [المتقارب]

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

حتى قال أبو نواس: [البسيط]

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

فسلخه وزاد فيه معنًى آخر، اجتمع له به الحسنُ في صدره وعجزه، فللأعشى فضل السبق إليه، ولأبي نواسٍ فضل الزيادة فيه.

وقال الرشيد للمفضل الضبي: اذكر لي بيتاً جيد المعنى يحتاج إلى مقارعة الفكر في استخراج خبيئه ثم دعني وإياه، فقال له المفضل: أتعرف بيتاً أوله أعرابي في شملته، هاب من نومته، كأنما صدر عن ركبٍ جرى في أجفانهم الوسن فركد، يستفزهم بعنجهية البدو، وتعجرف الشدو، وآخره مدني رقيق، قد غذى بماء العقيق؟ قال: لا أعرفه، قال: هو بيت جميل بن معمر: [الطويل]

أَلاَ أَيُّهَا الرَّكْبُ النِيَـــامُ أَلاَ هُبُّوا

ثم أدركته رقة المشوق، فقال:

أسائلكم: هل يقتل الرجل الحب؟

قال: صدقت، فهل تعرف أنت الآن بيتاً أوله أكثم بن صيفي في أصالة الرأي ونبل العظة، وآخره أبقراط في معرفته بالداء والدواء؟ قال المفضل: قد هولت علي، فليت شعري بأي مهرٍ تفترع عروس هذا الخدر؟

دَعْ عَنْكَ لَوْمي فَإِنَّ اللَّـوْمَ إِغْرَاءُ

قال: بإصغائك وإنصافك، وهو قول الحسن بن هاني:

وَدَاوِنِي بالتي كانَتْ هِيَ الـــدَّاءُ

قال أبو مُحَمَّد: وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الربع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحلول والظغن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لانتقالهم عن ماءٍ إلى ماءٍ، وانتجاعهم الكلأ، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة، والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريبٌ من النفوس، لائطٌ بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسببٍ، وضارباً فيه بسهمٍ، حلالٍ أو حرامٍ، فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا

النصب والسهر وسرى الليل وحل الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزه للسماح، وفضله على الأشباه، وصغر في قدره الجزيل.

فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يطل فيمل السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأٌ إلى المزيد.

فقد كان بعض الرجاز أتى نصر بن سيارٍ والي خراسان لبني أمية، فمدحه بقصيدةٍ، تشبيبها مائة بيتٍ، ومديحها عشرة أبياتٍ، فقال نصرٌ: والله ما بقيت كلمةٌ عذبةٌ ولا معنى لطيفاً إلا وقد شغلته عن مديحي بتشبيبك، فإن أردت مديحي فاقتصد في التسيب، فأتاه فأنشده:

هَلْ تَعْرِفُ الـــــدَّارَ لأُمِّ الغَمْرِ دَعْ ذَا وحَـــبِّرْ مدْحَـــةً في نَـــصْرِ

فقال نصر: لا ذلك ولا هذا ولكن بين الأمرين.

وقيل لعقيلِ بن علفة: ما لك لا تطيل الهجاء؟ فقال: يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق.

وقيل لأبي المهوش الأسدي: لم لا تطيل الهجاء؟ فقال: لم أجد المثل السائر إلا بيتاً واحداً.

وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام، فيقف على منزلٍ عامر، أو يبكي عند مشيد البنيان، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الدائر، والرسم العافي. أو يرحل على حمارٍ أو بغلٍ ويصفهما، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير، أو يرد على المياه العذاب الجواري، لأن المتقدمين وردوا على الأوابن الطوامي.

أو يقطع إلى الممدوح منابت النرجس والآس والورد، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة.

قال خلفٌ الأحمر: قال لي شيخٌ من أهل الكوفة، أما عجبت من الشاعر قال:

أَنْبَتَ قَيْصُـــــــوماً وجَثْجَاثَا

فاحتمل له، وقلت أنا:

أَنْبَتَ إِجَّـــــــاصاً وتُفَّاحَا

فلم يحتمل لي؟ وليس له أن يقيس على اشتقاقهم، فيطلق ما لم يطلقوا.

قال الخليل بن أحمد: أنشدني رجلٌ: [الرجز]

تَرَافَـــــعَ العِزُّ بِنَا فارْفَنْعَا

فقلت. ليس هذا شيئاً، فقال: كيف جاز للعجاج أن يقول: [الرجز]

تَقَـــاعَسَ العِزُّ بِنَا فَاقْعَنْسَا

ولا يجوز لي؟! ومن الشعراء المتكلف والمطبوع: فالمتكلف هو الذي قوم شعره بالثقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر بعد النظر، كزهير والحطيئة، وكان الأصمعي يقول: زهيرٌ والحطيئة وأشباههما من الشعراء عبيد الشعر، لأنهم نقحوه ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين، وكان الحطيئة يقول: خير الشعر الحولي المنقح المحكك. وكان زهيرٌ يسمى كبر قصائده: (الحوليات).

وقال سويد بن كراع، يذكر تنقيحه شعره: [الطويل]

أَبِيتُ بِأَبْوابِ القَوَافي كَأَنَّما ... أُصَادي بها سِرْباً مِنَ الوَحْشِ نُزَّعَا
أُكَالِئُهَا حَتَّى أَعَرِّسَ بَعْدَ ما ... يَكُونُ سُحَيْراً أَوْ بُعَيْدُ فأَهْجَعَا
إِذَا خِفْتُ أَنْ تُرْوَى عَلَيَّ رَدَدْتُهَا ... وَرَاءَ النِّرَاقِي خَشْيَةً أَنْ تَطَلَّعَا
وَجَشَّمَنِي خَوفُ ابْنِ عَفَّانَ رَدَّهَا ... فَثَقَّفْتُهَا حَوْلاً جَرِيداً ومَرْبَعَا
وقَدْ كَانَ في نَفْسِي عليْها زِيَادَةٌ ... فَلَمْ أَرَ إِلاَّ أَنْ أُطِيعَ وأَسْمَعَا

وقال عدي بن الرقاع: [الكامل]

وقَصِيدَةٍ قَدْ بِتُّ أَجْمَعُ بَيْنَهَا ... حَتَّى أُقَوِّمَ مَيْلَهَا وسِنَادَهَا
نَظَرَ المُثَقِّفِ في كُعُوبِ قَنَاتِهِ ... حَتَّى يُقِيمَ ثِقَافُهُ مُنْآدَهَا

وللشعر دواعٍ تحث البطيء وتبعث المتكلف، منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب.

وقيل للحطيئة: أي الناس أشعر؟ فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية، فقال: هذا إذا طمع.

وقال أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخريمي: مدائحك لمحمد بن منصور بن زياد، يعني: كاتب البرامكة، أشعر من مراثيك فيه وأجود؟ فقال: كنا يومئذ نعمل على الرجاء، ونحن اليوم نعمل على الوفاء، وبينهما بونٌ بعيد.

وهذه عندي قصة الكميت في مدحه بني أمية وآل أبي طالب، فإنه كان يتشيع وينحرف عن بني أمية بالرأي والهوى، وشعره في بني أمية أجود منه في الطالبيين، ولا أرى علة ذلك إلا قوة أسباب الطمع وإيثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآجرة.

وقيل لكثيرٍ: يأبا صخرٍ كيف تصنع إذا عسر عليك قول الشعر؟ قال: أطوف في الرباع المخلية والرياض المعشبة، فيسهل علي أرصنه، ويسرع إلى أحسنه.

ويقال أيضاً: إنه لم يستدع شارد الشعر بمثل الماء الجاري والشرف العالي والمكان الخضر الخالي.

وقال الأحوص: [الطويل]

وأَشْرَفْتُ فِي نَشْزٍ مِنَ الأَرْضِ يَافِعٍ ... وقَدْ تَشْعَفُ الأَيْفَاعُ مَنْ كانَ مُقْصَدا

وإذا شعفته الأيفاع مرته واستدرته.

وقال عَبْد الملك بن مَرْوَان لأرطاة بن سهية: هل تقول الآن شعراً؟ فقال: كيف أقول أنا للشنفري ما أشرف ولا أطرب ولا أغضب، وإنما يكون الشعر بواحدة من هذه.

وقيل للشنفري حين أُسر: أنشد، فقال: الإنشاد على حين المسرة، ثم قال: [الطويل]

فَلاَ تَدْفنُوني إنَّ دَفني مُحَرَّمٌ ... عليكُمْ ولكِنْ خَامِرِي أُمَّ عَامِرِ

إِذَا حَمَلُوا رأسِي وفي الرأسِ أكثَرِي ... وغودِرَ عِنْدَ المُلْتَقَى ثَمَّ سَائِرِي

هُنالِكَ لاَ أَرْجُو حَيَاةً تَسُرُّنِي ... سَمِيرَ الليالي مُبْسَلاً بالجَرَائِرِ

وللشعر تاراتٌ يبعد فيها قرينه، ويستصعب فيها ريضه. وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات، فقد يتعذر على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب، ولا يعرف لذلك سببٌ، إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاءٍ أو خاطر غم.

وكان الفرزدق يقول: أنا أشعر تميمٍ عند تميمٍ، وربما أتت علي ساعةٌ ونزع ضرس أسهل على من قول بيت.

وللشعر أوقاتٌ يسرع فيها أتيه، ويسمح فيها أبيه. منها أول الليل قبل تغشي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير.

ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل الكتاب.

وقالوا في شعر النابغة الجعدي: (خمارٌ بواف ومطرفٌ بآلاف).

ولا أرى غير الجعدي في هذا الحكم إلا كالجعدي، ولا أحسب أحداً من أهل التمييز والنظر، نظر بعين العدل وترك طريف التقليد، يستطيع أن يقدم أحداً من المتقدمين المكثرين على أحد إلا بأن يرى الجيد في شعره أكثر من الجيد في شعر غيره.

ولله در القائل: أشعر الناس من أنت في شعره حتى تفرغ منه.

وقال العتبي: أنشد مَرْوَان بن أبي حفصة لزهير فقال: زهير أشعر الناس، ثم أنشد للأعشى فقال: بل هذا أشعر الناس، ثم أنشد لامرىء القيس فكأنما سمع به غناءً على شراب، فقال: امرؤ القيس والله أشعر الناس.

وكل علمٍ محتاجٌ إلى السماع. وأحوجه إلى ذلك علم الدين، ثم الشعر، لما فيه من الألفاظ الغريبة، واللغات المختلفة، والكلام الوحشي، وأسماء الشجر والنبات والمواضع والمياه. فإنك لا تفصل في شعر الهذليين إذا أنت لم تسمعه بين شابة وساية وهما موضعان ولا تثق بمعرفتك في حزم نبايع، وعروان الكراث، وشسى عبقر، وأسد حلية، وأسد ترجٍ، ودفاقٍ، وتضارع، وأشباه هذا لأنه لا يلحق بالذكاء والفطنة، كما يلحق مشتق الغريب.

وقرىء يوماً على الأصمعي في شعر أبي ذؤيب:

بِأَسْفَلِ ذاتِ الدَّيْرِ أَفْرِدَ جَحْشُهَا

فقال أعرابي حضر المجلس للقارىء: ضل ضلالك أيها القارىء! إنما هي ذات الدبر وهي ثنيةٌ عندنا، فأخذ الأصمعي بذلك فيما بعد.

ومن ذا من الناس يأخذ من دفتر شعر المعذل بن عَبْد الله في وصف الفرس:

مِنَ السُّحِّ جَوالاً كَأَنَّ غُلاَمَهُ يُصَرِّف سِيْداً في العِنَانِ عَمَرْدَا

إلا قرأه سيداً يذهب إلى الذئب، والشعراء قد تشبه الفرس بالذئب وليست الرواية المسموعة عنهم إلا سبداً، قال أبو عبيدة: المصحفون لهذا الحرف كثير، يروونه سيداً أي ذئباً، وإنما هو سبدٌ بالباء معجمة بواحدة، يقال: فلانٌ سبدٌ أسبادٍ. أي: داهية دواه.

وكذلك قول الآخر:

زَوْجُكِ يا ذاتَ الثَّنَايَا الغُرِّ الرِّبلاَتِ والجَبِينِ الحُرِّ

يرويه المصحفون والآخذون عن الدفاتر الربلات وما الربلات من الثنايا والجبين؟ وهي أصول الفخذين، يقال: رجل أربل إذا كان عظيم الربلتين، أي عظيم الفخذين وإنما هي الرتلات بالتاء يقال: ثغرٌ رتلٌ إذا كان مفلجاً.

وليس كل الشعر يختار ويحفظ على جودة اللفظ والمعنى، ولكنه قد يختار ويحفظ على أسبابٍ: منها الإصابة في التشبيه، كقول القائل في وصف القمر:

بَدَأَنَ بنا وابْنُ اللَّيالي كَأَنَّهُ حُسَامٌ جَلَتْ عَنْهُ القُيُونُ صَقِيلُ

فما زِلْتُ أُفْنِي كُلَّ يَوْمٍ شَبَابَهُ إلى أَنْ أَتَتْكَ العِيسُ وهْوَ ضَئِيلُ

وكقول الآخر في مغن:

كَأَنَّ أَبَا الشُّمُوس إِذَا تَغَنَّى يُحَاكي عَاطِساً في عَيْنِ شَمْسِ

يَدُوكُ بِلَحْيِهِ طَوْراً وطَوْراً كَأَنَّ بِلَحْيِهِ ضَرَبَانَ ضِرْسِ

وقد يحفظ ويختار على خفة الروي، كقول الشاعر:

يا تَمْلِكُ يَا تَمْلِي صِلِيني وقَرِي عَنْزِلِي

ذَرِيني وسِلاَحي ثُمَّ شُدِّي الكَفَّ بِالغَزْلِ

ونَبْلِي وفُقَاهَا كَعَ رَاقِبِ قَطاً طُحْلِ

ومِنِّي نَظْرَةٌ بَعْدِي ومِنِّي نَظْرَةٌ قَبْلِي

وثَوْبَـــايَ جَدِيـــدَانِ وأُرْخِـــي شُرْكَ النَّعْـــل
وإِمَّـــا مُـــتُّ يـــا تَمْـــلي فَكُـــونِي حُـــرَّةً مِـــثْلي

وهذا الشعر مما اختاره الأصمعي بخفة رويه.

وكقول الآخر:

ولَـــو أُرْسِـــلْتُ مِـــنْ حُبِّـــ ـــكِ مَبْهُوتـــاً مِـــنَ الـــصِّينْ
لَوَافَيْتُـــكِ قَبْـــلَ الـــصُّبـ ـــحِ أَوْ حِـــينَ تُـــصَلِّينْ

وكان يتمثل بهذا كثيراً وقال: المبهوت من الطير الذي يرسل من بعد قبل أن يدرج.

وقد يختار ويحفظ لأن قائله لم يقل غيره، أو لأن شعره قليلٌ عزيز، كقول عَبْد الله بن أبي بن سلولٍ المنافق:[الطويل]

مَتَى ما يَكُنْ مَوْلاكَ خَصْمَكَ لا تَزَلْ تَـــذِلُّ ويَعْلُـــوكَ الَّـــذِينَ تُـــصَارِعُ
وهَـــلْ يَـــنْهَضُ البَـــازِي بِغَيْـــرِ جَنَاحِـــهِ وإِنْ قُـــصَّ يَوْمـــاً رِيـــشُهُ فَهْـــوَ وَاقِـــعُ

وقد يختار ويحفظ لأنه غريبٌ في معناه، كقول القائل في الفتى:

لَـيْسَ الفَتَـى بفتًـى لا يُسْتَضَاءُ بِـهِ ولا يكُـــونُ لَـــهُ في الأَرْضِ آثَـــارُ

وكقول آخر في مجوسي: [المتقارب]

شَـــهِدْتُ عَلَيْـــكَ بِطِيـــبِ المُـــشَاشِ وأَنَّـــكَ بَحْـــرٌ جَـــوَادٌ خِـــضَمْ
وأَنَّـــكَ سَـــيِّدُ أَهْـــلِ الجَحِـــيمِ إِذَا مَـــا تَرَدَّيْـــتَ فِـــيمَنْ ظَلَـــمْ
قَـــرِينٌ هِامَـــانَ في قَعْرِهَـــا وفِرْعَـــوْنَ والمُكْتَنَـــى بـــالحَكَمْ

وقد يختار ويحفظ أيضاً لنبل قائله، كقول المهدي: [السريع]

تُفَّاحَـــةٌ مِـــنْ عِنْـــدِ تُفَّاحَـــةِ جَـــاءَتْ فَـــمَاذا صَـــنَعَتْ بـــالفُؤَادْ
واللهِ مـــا أَدْرِي أَأَبْـــصَرْتُها يَقْظَـــانَ أَمْ أَبْـــصَرْتُهَا في الرُّقَـــادْ

وكقول الرشيد: [البسيط]

النَّفْسُ تَطْمَعُ والأَسْبَابُ عـاجِزَةٌ والنَّفْسُ تَهْلِـكُ بَـيْنَ اليَـأْسِ والطَّمَـعِ

وكقول المأمون في رسول: [الطويل]

بعَثْتُكَ مُشْتَاقاً فَفُزْتَ بِنَظْرَةٍ ... وأَغْفَلْتَنِي حَتَّى أَسَأْتُ بِكَ الظَّنَّا
وناجَيْتَ مَنْ أَهْوَى وكُنْتَ مُقَرَّباً ... فَيَالَيْتَ شِعْرِي عَنْ دُنُوِّكَ ما أَغْنَى
ورَدَّدْتَ طَرْفاً في مَحَاسِنِ وجْهِهَا ... ومَتَّعْتَ باسْتِمَاعِ نَغْمَتِهَا أُذُنَا
أَرَى أَثَراً مِنْها بِعَيْنَيْكَ لَمْ يَكُنْ ... لقد سَرَقَتْ عَيْنَاكَ مِنْ وجْهِهَا حُسْنَا

وكقول عَبْد الله بن طاهر: [الوافر]

أَمِيلُ مَعَ الذِّمَامِ على ابْنِ عَمِّي ... وأَجْعَلُ لِلصَّدِيقِ على الشَّقِيقِ
وإِنْ أَلْفَيْتَنِي مَلِكاً مُطَاعاً ... فإِنَّكَ واجِدِي عَبْدَ الصَّدِيقِ
أُفَرِّقُ بَيْنَ مَعْرُوفِي ومَنِّي ... وأَجْمَعُ بَيْنَ مَالِي والحُقُوقِ

وهذا الشعر شريفٌ بنفسه وبصاحبه.

وكقوله: [المديد]

مُذْمِنُ الإِغْضَاءِ مَوْصُولُ ... ومُدِيمُ العَتْبِ مَمْلُولُ
ومَدِينُ البِيضِ في تَعَبٍ ... وغَرِيمُ البِيضِ مَمْطُولُ
وأَخُو الوَجْهَيْنِ حَيْثُ وهَى ... بَهَواهُ فَهْوَ مَدْخُولُ

وكقول إبراهيم بن العباس لابن الزيات: [الطويل]

أَبَا جَعْفَرٍ عَرِّجْ عَلَى خُلَطَائِكَا ... وأَقْصِرْ قَلِيلاً مِنْ مَدَى غُلَوَائِكَا
فإِنْ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ في اليَوْمِ رِفْعَةً ... فإِنَّ رَجَائِي فِي غَدٍ كَرَجَائِكَا

والمتكلف من الشعر وإن كان جيداً محكماً فليس به خفاءٌ على ذوي العلم، لتبينهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر، وشدة العناء، ورشح الجبين، وكثرة الضرورات، وحذف ما بالمعاني حاجةٌ إليه، وزيادة ما بالمعاني غنًى عنه. كقول الفرزدق في عمر بن هبيرة لبعض الخلفاء: [الوافر]

أَوَلَّيْتَ العِرَاقَ ورَافِدَيْهِ ... فَزَارِيًّا أَحَذَّ يَدِ القَمِيصِ

يريد: أوليتها خفيف اليد، يعني في الخيانة، فاضطرته القافية إلى ذكر القميص، ورافداه: دجلة والفرات.

وكقول الآخر:

مِنَ اللَّوَاتي والتي واللَّاتي ... زَعَمْنَ أنِّي كَبِرَتْ لِدَاتي

وكقول الفرزدق: [الطويل]

وعَضُّ زَمَانٍ يا ابْنَ مَرْوَانَ لم يَدَعْ ... مِنَ المَالِ إلاَّ مُسْحَتاً أوْ مُجَلَّفُ

فرفع آخر البيت ضرورةً، وأتعب أهل الإعراب في طلب العلة، فقالوا وأكثروا، ولم يأتوا فيه بشيءٍ يرضي، ومن ذا يخفى عليه من أهل النظر أن كل ما أتوا به من العلل احتيالٌ وتمويه؟ وقد سأل بعضهم الفرزدق عن رفعه إياه فشتمه وقال: علي أن أقول وعليكم أن تحتجوا! وقد أنكر عليه عَبْد الله بن إسحاق الحضرمي من قوله: [البسيط]

مُسْتَقْبِلِين شَمالَ الشَّأْمِ تَضْرِبُنَا ... بحَاصِبٍ مِن نَديفِ القُطْنِ مَنْثُورِ

عَلى عَمَاعنا تُلْقِي وأرْحُلُنا ... على زَوَاحِفَ تُزْجَى مُخُّهَا رِيرُ

مرفوعٌ فقال ألاَ قلتَ ... على زَوَاحِفَ نُزْجِيهَا مَحَاسِيرِ

فغضب وقال: [الطويل]

فلَوْ كانَ عَبْد الله مَوْلَى هَجَوْتُهُ ... ولكِنَّ عَبْد الله مَوْلَى مَوَالِيَا

وهذا كثير في شعره على جودته.

وتتبين التكلف في الشعر أيضاً بأن ترى البيت فيه مقروناً بغير جاره، ومضموماً إلى غير لفقه، ولذلك قال عمر بن لجإٍ لبعض الشعراء: أنا أشعر منك، قال: وبم ذلك؟ فقال: لأني أقول البيت وأخاه، ولأنك تقول البيت وابن عمه.

وقال عَبْد بن سالم لرؤبة: مت يأبا الجحاف إذا شئت! فقال رؤبة: وكيف ذلك؟ قال: رأيت ابنك عقبة ينشد شعراً له أعجبني، قال رؤبة: نعم، ولكن ليس لشعره قرانٌ. يريد أنه لا

يقارن البيت بشبهه. وبعض أصحابنا يقول قرآن بالضم، ولا أرى الصحيح إلا الكسر وترك الهمز على ما بينت.

والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي، وأراك في صدر بيته عجزه، وفي فاتحته قافيته، وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغزيرة، وإذا امتحن لم يتعلثم ولم يتزحر.

وقال الرياشي: حدثني أبو العالية عن أبي عمران المخزومي قال: أتيت مع أبي والياً على المدينة من قريش، وعنده ابن مطير، وإذا مطرٌ جودٌ، فقال له الوالي، صفه، فقال: دعني حتى أشرف وأنظر، فأشرف ونظر، ثم نزل فقال: [الكامل]

كَثُرَتْ لِكَثْرَةِ قَطْرِهِ أَطْبَاؤُهُ ... فَإِذَا تَحَلَّبَ فَاضَتِ الأَطْبَاءُ

وكَجَوْفِ ضَرَّتِهِ التي في جَوْفِهِ ... جَوْفُ السَّمَاءِ سِبَحْلَةٌ جَوْفَاءُ

ولَهُ رَبَابٌ هَيْدَبٌ لِرَفِيفِهِ ... قَبَلَ التَّبَغُّقِ دِيمَةٌ وطْفَاءُ

وكَأَنَّ بَارِقَهُ حَرِيقٌ يَلْتَقِي ... رِيحٌ عليهِ وعَرْفَجٌ وأَلاَءُ

وكَأَنَّ رَيْقَهُ ولَمَّا يَخْتَفِلْ ... وَدْقُ السَّمَاءِ عَجَاجَةٌ كَدْرَاءُ

مُسْنَضْحِكٌ بِلَوَامِعٍ مُسْتَعْبِرٌ ... بِمَدَامِعٍ لَمْ تَمْرِهَا الأَقْذَاءُ

فَلَهُ بِلاَ حُزْنٍ ولا بِمَسَرَّةٍ ... ضَحِكٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ويُكَاءُ

حَيْرَانُ مُتَّبِعٌ صَبَاهُ تَقُودُهُ ... وجَنُوبُهُ كِنَفٌ لَهُ ووِعَاءُ

ودَنَتْ لَهُ نَكْبَاؤُهُ حتَّى إذا ... مِنْ طُولِ مَا لَعِبَتْ بِهِ النَّكْبَاءُ

ذَابَ السَّحَابُ فَهُوَ بَحْرٌ كُلُّهُ ... وعلى البُحُورِ مِنَ السَّحَابِ سَمَاءُ

ثَقُلَتْ كُلاَهُ فَنَهَرَتْ أَصْلاَبَهُ ... وتَبَعَّجَتْ مِنْ مَائِهِ الأَحْشَاءُ

غَدَقٌ يُنَتِّجُ بالأَبَاطِحِ قُرَّماً ... تَلِدُ السُّيُولَ وما لَهَا أَسْلاَءُ

غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ دَوَالِحُ ضُمِّنَتْ ... حَمْلَ اللِّقَاحِ وكُلُّهَا عَذْرَاءُ

سُحُمٌ فَهُنَّ إِذَا كَظَمْنَ فَوَاحِمٌ ... سُودٌ وهُنَّ إِذَا ضَحِكْنَ وِضَاءُ

لَوْ كانَ مِن لُجَجِ السَّوَاحِلِ مَاؤُهُ لم يَبْقَ مِن لُجَجِ السَّوَاحِلِ مَاءُ

قال أبو مُحَمَّد: وهذا الشعر، مع إسراعه فيه كما ترى، كثير الوشي لطيف المعاني.

وكان الشماخ في سفرٍ مع أصحابٍ له، فنزل يحدو بالقوم فقال: [الرجز]

لم يَبْقَ إلاَّ مِنطَقٌ وأَطْرَافْ ورَيْطَتَانِ وقَمِيصٌ هَفْهَافْ

وشُعْبَتَا مَيسٍ بَرَاهَا إِسْكَافْ يَا رُبَّ غَازٍ كَارِهٍ لِلإِيجَافْ

أَغْدَرَ فِي الحَيِّ بَرُودَ الأَضْيَافْ مُرْنَجَّةَ البُوصِ خَضِيبَ الأَطْرَافْ

ثم قطع به هذا الروي وتعذر عليه، فتركه وسمح بغيره على إثره، فقال: [الرجز]

لَمَّا رَأَتْنَا وَاقِفِي المَطِيَّاتْ قَامَتْ تَبَدَّى لِي بِأَصْلَتِيَّاتْ

غُرٍ أَضَاءَ ظَلْمُهَا النَّيِّرَاتْ خَوْدٌ مِنَ الظَّعَائِنِ الضَّمْرِيَّاتْ

حَلاَّلَةُ الأَوْدِيَةِ الغَوْرِيَّاتْ صَفِيُّ أَتْرَابٍ لَهَا حَيِّيَّاتْ

مِثْلِ الأَشَاءَاتِ أَوِ البَرْدِيَّاتْ أَوِ الغَمَامَاتِ أَوِ الوَدِيَّاتْ

أَوْ كَظِبَاءِ السِّدْرِ العُبْرِيَّاتْ يَخْضُنَ بِالقَيْظِ عَلَى رَكِيَّاتْ

وَضَعْنَ أَثْمَاطاً عَلَى زِرْبِيَّاتْ ثُمَّ جَلَسْنَ بِرْكَةَ البُخْتِيَّاتْ

مَنْ رَاكِبٌ يُهْدِي لَهَا التَّحِيَّاتْ أَزْوَعُ خَرَّاجٌ مِنَ الدَّاوِيَّاتْ

قال أبو عبيدة: اجتمع ثلاثةٌ من بني سعد يراجزون بني جعدة، فقيل لشيخٍ من بني سعدٍ: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل لا أفتح، وقيل لآخر: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل ولا أنكف، وقيل للثالث: ما عندك؟ قال: أرجز بهم يوماً إلى الليل ولا أنكش، فلما سمعت بنو جعدة كلامهم انصرفوا ولم يراجزوهم.

والشعراء أيضاً في الطبع مختلفون: منهم من يسهل عليه المديح ويعسر عليه الهجاء. ومنهم من يتيسر له المراثي ويتعذر عليه الغزل.

وقيل للعجاج: إنك لا تحسن الهجاء؟ فقال: إن لنا أحلاماً تمنعنا من أن نظلم، وأحساباً تمنعنا من أن نظلم، وهل رأيت بانياً لا يحسن أن يهدم.

وليس هذا كما ذكر العجاج، ولا المثل الذي ضربه للهجاء والمديح يشكل، لأن المديح بناءٌ والهجاء بناءٌ، وليس كل بانٍ بضربٍ بانياً بغيره. ونحن نجد هذا بعينه في أشعارهم كثيراً، فهذا ذو الرمة، أحسن الناس تشبيهاً، وأجودهم تشبيباً، وأوصفهم لرملٍ وهاجرةٍ وفلاةٍ وماءٍ وقرادٍ وحيةٍ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبعُ. وذاك أخره عن القحول، فقالوا: في شعره أبعار غزلانٍ ونقط عروسٍ! وكان الفرزدق زير نساءٍ وصاحب غزل، وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب. وكان جريرٌ عفيفاً عزهاةً عن النساء، وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيباً، وكان الفرزدق يقول: ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعري، وما أحوجني إلى رقة شعره لما ترون.

عيوب الشعر

١ - الإقواء والإكفاء:

قال أبو مُحَمَّد: كان أبو عمرو ابن العلاء يذكر أن الإقواء: هو اختلاف الإعراب في القوافي، وذلك أن تكون قافيةٌ مرفوعةً وأخرى مخفوضةً، كقول النابغة: [البسيط]

قالتْ بَنُو عامِرٍ خَالُوا بَني أَسَدٍ ... يا بُؤْس للجَهْلِ ضَرَّاراً لِأَقْوَامِ

وقال فيها:

تَبْدُو كَوَاكِبُهُ والشَّمْسُ طَالِعَةٌ ... لاَ النُّورُ نُورٌ ولا الإظْلَامُ إِظْلَامُ

وكان يقال: إن النابغة الذبياني وبشر بن أبي خازم كانا يقويان، فأما النابغة فدخل يشرب فغنى بشعره ففطن فلم يعد للإقواء.

وبعض الناس يسمي هذا الإكفاء، ويزعم أن الإقواء نقصان حرف من فاصلة البيت، كقول حجل بن نضلة، وكان أسر بنت عمرو ابن كلثوم وركب بها المفاوز، واسمها النوار: [الكامل]

حَنَّتْ نَوَارُ ولاتَ هَنَّا حَنَّتِ ... وبَدَا الَّذِي كانَتْ نَوَارُ أَجَنَّتِ

لَمَّا رَأَتْ مَاءَ السَّلاَ مَشْرُوباً ... والفَرْثَ يُعْصَرُ في الإِنَاءِ أَرَنَّتِ

سمي إقواءً لأنه نقص من عروضه قوةٌ. وكان يستوي البيت بأن تقول متشرباً. يقال أقوى فلانٌ الحبل إذا جعل إحدى قواه أغلظ من الأخرى، وهو حبلٌ قوٍ.

مثل قول حميد:

إِنِّي كَبِرْتُ وإِنَّ كُلَّ كَبِيرِ ... مِمَّا يُضَنُّ بِهِ يَمَلُّ ويَفْتُرُ

وكقول الربيع بن زيادٍ: [الكامل]

أَفَبَعْدَ مَقْتَلِ مَالِكِ بْنِ زُهَيْرٍ ... تَرْجُو النِّسَاءُ عَوَاقِبَ الأَطْهَارْ

ولو كان بن زهيرة لاستوى البيت.

٢ - والسناد: هو أن يختلف إرداف القوافي، كقولك علينا في قافيةٍ وفينا في أخرى.

كقول عمرو بن كلثوم: [الوافر]

أَلاَ هُبِّي بِصَحْنِـــكِ فاصْبَحِينَا

فالحاء مكسورة. وقال في آخر:

تُصَفِّقُهَا الرِّيَـــــاحُ إذَا جَرَيْنَا

فالراء مفتوحةٌ، وهي بمنزلة الحاء.

وكقول القائل: [الوافر]

كَأَنَّ عُيُـــــونَهُنَّ عُيُونُ عني

ثم قال:

وأَصْبَحَ رَأْسُـــهُ مِثْلَ اللُّجَيْنِ

٣- والإيطاء: هو إعادة القافية مرتين، وليس بعيبٍ عندهم كغيره.

٤ - الإجازة: اختلفوا في الإجازة، فقال بعضهم: هو أن تكون القوافي مقيدةً فتختلف الأرداف، كقول امرىء القيس: [المتقارب]

لاَ يَدَّعي القَـــــوْمُ أَنِّي أَفِرّ

فكسر الردف، وقال في بيت آخر:

وكِنْدَةُ حَـــــوْلِي جَمِيعاً صُبُرْ

فضم الردف، وقال في بيتٍ آخر:

أَلْحَقْتَ شَـــــــــراً بِشَرْ

ففتح الردف.

وقال الخليل بن أحمد: هو أن تكون قافيةٌ ميماً والأخرى نوناً، كقول القائل:

يـا رُبَّ جمْـعٍ مـنهمُ لَـوْ تَـدْرِينْ ... يـضربُ ضَرْبَ الـسَّبِطِ المَقَـادِيمْ

أو طاءً والأخرى دالاً، كقول الآخر:

تَـاللهِ لَـوْلاَ شَـيْخُنَا عَبَّـادُ ... لَكَمَرْونـا عِنْـدَهَا أَوْ كَـادُوا

فَرْشَـطَ لَمَّـا كُـرةَ الفِرشَـاطُ ... بفِيْـشَةٍ كَأَنَّهَـا مِلْطَـاطُ

وهذا إنما يكون في الحرفين يخرجان من مخرج واحدٍ أو مخرجين متقاربين.

قال ابن الأعربي: الإجازة: مأخوذة من إجازةَ الحبل والوتر.

٥- العيب في الإعراب:

وقد يضطر الشاعر فيسكن ما كان ينبغي له أن يحركه، كقول لبيد: [الكامل]

تَــرَّاكُ أَمْكِنَــةٍ إِذَا لَمْ أَرْضَــهَا أَوْ يَعْتَلِــقْ بَعْــضَ النُّفُــوسِ حِمَامُهَــا

يريد: أترك المكان الذي لا أرضاه إلى أن أموت، لا أزال أفعل ذلك.

وأو هاهنا بمنزلة حتى. وكقول امرىء القيس: [السريع]

فَــاليَوْمَ أَشْرَبْ غَــيْرَ مُــسْتَحقِبٍ إِثْــماً مِــنَ اللهِ ولاَ واغِــلِ

ولـولا أن النحـويين يـذكرون هـذا البيـت ويحتجـون بـه في تـسكين المتحـرك لاجـتماع الحركات، وأن كثيراً من الرواة يروونه هكذا، لظننته:

فاليَوْمَ أُسْقَى غَــيْرَ مُسْتَحْقِبٍ

قال أبو مُحَمَّد: وقد رأيت سيبويه يـذكر بيتـاً يحتج بـه في نـسق الاسم المنصوب عـلى المخفوض، على المعنى لا على اللفظ، وهو قول الشاعر: [الوافر]

مُعَــاوِيَ إِنَّنَــا بَــشَرٌ فَأَسْــجِحْ فَلَــسْنَا بالجِبَــالِ ولا الحَدِيــدَا

قال: كأنه أراد: لسنا الجبال ولا الحديدا، فرد الحديد على المعنى قبـل دخـول البـاء، وقـد غلط على الشاعر، لأن هذا الشعر كله مخفوضٌ، قال الشاعر: [الوافر]

فهبْهَــا أُمَّــةً ذَهَبَــتْ ضَــيَاعاً يَزِيــدُ أَمِيرُهَــا وأَبُــو يَزِيــدِ

أَكَلْــتُمْ أَرْضَــنَا وجَرَدْتُمُوهَــا فَهَــلْ مِــنْ قَــائِمٍ أَوْ مِــنْ حَــصِيدِ

ويحتج أيضاً بقول الهذلي في كتابه، وهو قوله: [الوافر]

يَبِيــتُ عــلى مَعَــارِيَ فَــاخِرَاتٍ بِهِــنَّ مُلَــوَّبٌ كَــدَمِ العِبَــاطِ

وليست هاهنا ضرورة فيحتاج الشاعر إلى أن يترك صرف معارٍ ولو قال:

يَبِيتُ على مَعَــــارٍ فَاخِراتٍ

كان الشعر موزونا والإعراب صحيحاً.

قال أبو مُحَمَّد: وهكذا قرأته على أصحاب الأصمعي.

وكقوله في بيتٍ آخر:

لِيَبْكِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ ومُخْتَبِطٌ مِمَّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ

وكان الأصمعيّ ينكر هذا ويقول: ما اضطره إليه؟ وإنما الرواية:

لِيَبْكِ يَزِيدَ ضَارِعٌ لِخُصُومَةٍ

وكذلك قول الفراء: [الرمل]

فَلَئِنْ قَوْمٌ أَصَابُوا عِزَّةً وأَصَبْنَا مِن زَمَانٍ رَنَقَا

لَلَقَدْ كَانُوا لَدَى أَزْمَانِهِ لَصَنِيعَيْ لِبَأْسٍ وتُقَى

هو فلقد كانوا وهذا باطل.

وكذلك قوله:

مَنْ كَانَ لاَ يَزْعُمُ أَنِّي شَاعِرٌ فَيَدْنُ مِنِّي تَنْهَهُ المَزَاجِرُ

إنما هو فليدن مني وبه يصح أيضاً وزن الشعر.

وكذلك قوله:

فَقُلْتُ ادْعِي وأَدْعُ فَإِنَّ أَنْدَى لِصَوْتٍ أَنْ يُنَادِيَ دَاعِيَانِ

إنما هو:

فَقُلْتُ ادْعِي وأَدْعُوَ إِنَّ أَنْدَى

وكقول الفرزدق:.[السريع]

رُحْتِ وفي رِجْلَيْكِ عُقَّالَةٌ وقَدْ بَدَا هَنْكِ مِنَ المِئْزَرِ

وقد يضطر الشاعر فيقصر الممدود، وليس له أن يمد المقصور. وقد يضطر فيصرف غير المصروف، وقبيحٌ ألا يصرف المصروف. وقد جاء في الشعر، كقول العباس بن مرداس السلمي: [المتقارب]

وما كَانَ بَدْرٌ ولا حَابِسٌ يَفُوقَانِ مِرْدَاسَ في مَجْمَعِ

وأما ترك الهمز من المهموز فكثيرٌ واسعٌ، لا عيب فيه على الشاعر، والذي لا يجوز أن يهمز غير المهموز.

وليس للمحدث أن يتبع المتقدم في استعمال وحشي الكلام الذي لم يكثر، ككثير من أبنية سيبويه، واستعمال اللغة القليلة في العرب، كإبدالهم الجيم من الياء، كقول القائل: (يا رب إن كنت قبلت حجتج) يريد حجتي، وكقولهم: (جمل بختج) يريدون بختي. وعلج يريدون علي.

وإبدالهم الياء من الحرف في الكلمة المخفوضة، كقول الشاعر:

هَـا أَشَـارِيرُ مِـنْ لَحْـمٍ تُتَمِّـرُهُ ... مِـنَ الثَّعَـالِي ووَخْـزٌ مِـنْ أَرانِيهَـا

يريد من أرانبها وكقول الآخر: ولضفادى جمه نقانق يريد ضفادع.

وكإبدالهم الواو من الألف، كقولهم أفعو وحبلو يريدون أفعى وحبلى. وقال ابن عباس: لا بأس برمي الحدو للمحرم وأستحب له ألا يسلك فيما يقول الأساليب التي لا تصح في الوزن ولا تحلو في الأسماع، كقول القائل:

قُـلْ لِـسُلَيْمى إذَا لاَقَيْتَهَـا ... هَـلْ تَـبْلُغِنَّ بَلْـدَةً إلا بِـزَادْ

قُـلْ لِلـضَّعَالِيكِ لا تَسْتَجْسِرُوا ... مِـن الْـتماسِ وسَـيْرٍ في الـبِلاَدْ

فـالغَزْوُ أَحْجَـى عـلى مَـا خَيَّلَـتْ ... مِـن اضْـطِجَاعٍ عـلى غَـيْرِ وِسَـادْ

لَـوْ وصَـلَ الغَيْـثُ أَبْنَـاءَ امْـرِىءٍ ... كانَـتْ لَـهُ قُبَّـةٌ سَـحْقٌ بجَـادْ

وبَلْـدَةٍ مُقْفِـرٍ غِيطَانُهَـا ... أَصْـدَاؤُهَا مَغْـرِبَ الـشَّمْسِ تَنَـادْ

قَطَعْتُهَـا صَـاحبي حُوشِـيَّةٌ ... في مِرْفَقَيْهَـا عَـنِ الـزَّوْرِ تَعَـادْ

وكقول المرقش: [السريع]

هَـلْ بالـدِّيارِ أَنْ تُجِيـبَ صَـمَمْ ... لَـوْ أَنَّ حَيًّـا نَاطِقـاً كَلَّـمْ

يَـأْبَى الـشَّبَابُ الأُقْـوَرِينَ ولاَ ... تَغْـبِطْ أَخَـاكَ أَنْ يُقَـالَ حَكَـمْ

قال أبو مُحَمَّد: وهذا يكثر، وفيما ذكرت منه ما دلك على ما أردت من اختيارك أحسن الروي، وأسهل الألفاظ، وأبعدها من التعقيد والاستكراه وأقربها من إفهام العوام.

ترجمة المؤلف

اسمه ونسبه ولقبه[1]:

هو الإمام الحافظ الحجة الكاتب الأبرع العلامة البليغ الحافظ المجود المقرئ مجد العلماء أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن عَبْد الله بن أبي بكر القُضَاعِيّ الأَنْدَلُسِيّ البَلَنْسِيّ ثم التُّونسي الكاتب المنشئ، المعروف بـ(الأَبَّار) وبـ(ابن الأَبَّار).

مولده:

ولد بِبَلَنْسية من شرقي بلاد الأَنْدَلُس في أحد الربيعين من سنة خمسٍ وتسعين وخمسمائة.

نشأته:

سمع من أبيه وتفقه على يديه، وعُني بالحديث، وتجول بالأندلس، وكتب العالي والنازل. وكان بصيراً بالرجال، عارفاً بالتاريخ إماماً في العربية، فقيهاً، مقرئاً، إخبارياً، فصيحاً، مفوَّهاً، له يدٌ في البلاغة والإنشاء، والنظم، والنثر. كامل الرئاسة، ذا جلالة وأبَّهةٍ وتجمُّلٍ وافر. وله مصنفات كثيرة في الحديث، والتاريخ، والآداب.

ويعتبر ابن الأبار من أعيان المؤرخين والأدباء، رحل عن الأَنْدَلُس لما احتلها الإفرنج، واستقر بتونس، فقربه صاحب تونس السلطان أبو زكريا، وولاه كتابة (علامته) في صدور الرسائل مدة ثم صرفه عنها، وأعاده.

---

(١) اختصار القدح المعلى لابن سعيد: ١٩٢- ١٩٥، الترجمة ٥٨، المغرب في حلى المغرب لابن سعيد أيضا ٢/ ٣٠٩، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة لابن عبدالملك المراكشي: ٦/ ٢٥٣- ٢٧٥ الترجمة ٧٠٩، عنوان الدراية للغبريني: ٣٠٩- ٣١٣، الترجمة ٩٥، تاريخ الاسلام للذهبي ١١/ ٢٩٤، تذكرة الحفاظ: ٤/ ١٤٥٢، ولم يذكر له ترجمة وافية وقال ذكوته في " الممتع "، العبر: ٥/ ٢٤٩، الوافي بالوفيات: ٣/ ٣٥٥ - ٣٥٨ الترجمة ١٤٣٦، فوات الوفيات: ٣/ ٤٠٤- ٤٠٧، الترجمة: ٤٧١، عيون التواريخ: ٢٠/ ٢٤٥، النجوم الزاهرة: ٧/ ٩٢ أزهار الرياض ٣/ ٢٠٤- ٢٢١، نفح الطيب: ٢/ ٥٨٩ - ٥٩٤ الترجمة ٢١٨ وأحال على ترجمته الموسعة التي كتبها في أزهار الرياض، شذرات الذهب: ٥/ ٢٧٥.

ومات أبو زكريا وخلفه ابنه المستنصر فرفع هذاً مكانته، ثم علم المستنصر أن ابن الأبار كان يزري عليه في مجالسه، وعزيت إليه أبيات في هجائه، فأمر به فقتل قصعاً بالرماح في تونس.

شيوخه:

١- أبيه الإمام أبي مُحَمَّد الأبار.

٢- القاضي أبي عَبْد الله بن نوح الغافقي.

٣- أبو الخطاب ابن واجب.

٤- أبو داود سليمان ابن حوط الله.

٥- أبو عَبْد الله مُحَمَّد بن عَبْد العزيز بن سعادة.

٦- أبو علي الحسين بن يوسف بن زلال.

٧- أبو عَبْد الله ابن اليتيم.

٨- الحافظ أبي الربيع ابن سالم.

٩- أبو بكر مُحَمَّد بن أحمد بن جمرة.

١٠- أبو الربيع سليمان بن موسى بن مسالم الْكَلَاعِيّ.

مؤلفاته:

١- كمَّل " الصلة " لابن بشكوال بكتاب في ثلاثة أسفار . قال الشيخ شمس الدين : اختصرته في مجلد واحد.

٢- وله جزء سمّاه " دُرَر السِمط في خبر السِبط " يعني: الحسين بإنشاء بديع يدل على تشيع فيه ظاهر، لأنه يصف عليا رضي الله عنه بالوصي، وينال من مُعَاوِيَة وآله.

٣- وكتاب " تحفة القادم " تراجم شعراء .

٤- وكتاب " إيماض البرق " .

٥- و" الحُلة السيراء في أشعار الأمراء " .

٦- و" إعتاب الكُتَّاب " .

٧- و"إيماض البرق في أدباء الشرق".

٨- و"الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة".

٩- و"مظاهرة المسعى الجميل ومحاذرة المرعى الوبيل" في معارضة (ملقى السبيل) للمعري.

١٠- و"هداية المعترف في المؤتلف والمختلف".

١١- و"الأربعون عن أربعين شيخا من أربعين تصنيفا لأربعين عالما من أربعين طريقا إلى أربعين تابعيا عن أربعين صحابيا لهم أربعون اسما من أربعين قبله في أربعين بابا".

١٢- و"إعانة الحقير في شرح زاد الفقير".

١٣- و"قطع الديار في متخير الأشعار".

١٤- و"معادن اللجين في مراثي الحسين".

١٥- و"أنيس الجليس ونديم الرئيس".

مقتطفات من شعره:

من شعره يصف المركب [البسيط] :

يا حبذا من بنات الماء سابحة ... تطفو لما شب أهل النار تطفئه

تطيرها الريح غرباناً بأجنحة الـ ... ـحمائم البيض للإشراك ترزؤه

من كل أدهم لا يلفى به جرب ... فما لراكبه بالقار يهنؤه

يُدعى غراباً وللفتخاء سرعته ... وهو ابن ماء وللشاهين جؤجؤه

ومنه [المتدارك] :

مرقوم الخد مورّده ... يكسوني السقم مجرّدُهُ

شفاف الدر له جسد ... بأبي ما أودع مجسده

في وجنته من نعمته ... جمر بفؤادي موقده

نظـــرت عينـــاي لـــه خطـــأ ... فـــأبى الأنظـــار تعمّـــده
ريـــم يرمـــي عـــن أكحلـــه ... زُرقـــاً تُـــصمي مـــن يـــصمده
متـــداني الخطـــوة مـــن تـــرف ... أتُـــرى الأحجـــال تقيـــده
ولاه الحـــــسن وأمـــــره ... وأتـــاه الـــسحر يؤيـــده

ومنه [الطويل] :

ونهـر كـما ذابـت سبائك فـضة ... حكـى بمحانيـه انعطـاف الأراقـمِ
إذا الـشفق امستولى عليـه احمـراره ... تبدَّى خضيباً مثل دامـي الـصوارم
وتحـسبه سـنت عليـه مفاضـة ... لأنْ هـاب هبـات الريـاح النواسـم
وتطلعـه مـن دكنـة بعـد زُرقـة ... ظـلال لأدواح عليـه نـواعم
كما انفجر الفجر المطل على الدجى ... ومن دونه في الأفق سحم الغمائم

ومنه أيضاً [مجزوء الكامل] :

لله نهـــــر كالحُبـــــاب ... ترقيـــشه ســـامي الحِبـــاب
يـــصف الـــسماء صـــفاؤه ... فحـصاه لـيس بـذي اصـطخاب
وكـــأنما هـــو رقـــة ... مـن خـالص الـذهب المُـذاب
غـــارت عـــلى شـــطَّيه أبـــ ... ـــكار المنـى عـصر الـشباب
والظـــل يبـــدو فوقـــه ... كالخـــال في خـــد الكعـــاب
لا بـــل أدار عليـــه خـــو ... ف الـــشمس منـــه كالنِّقـــاب
مثـــل المجـــرةِ جَـــرَّ فيـــ ... ـــها ذيلـــه جَـــونُ الـــسحاب

ومنه أبيات [الكامل] :

شـتى محاسـنه فمـن زهـر عـلى ... نهـر تسلـسل كالحبـاب تسلـسلا
عريتْ بـه شـمس الظهـيرة لاتّنـي ... إحـراق صـفحته لهيبـاً مـشعلا
حتـى كـساه الـدوح مـن أفنانـه ... بُـرداً يمـزق في الأصـايل سلـسلا

وكـــأنما لمـــع الظـــلال بمتنـــه ... قطـــع الـــدماء جـــذنَ حـــين تحلـــلا

وله قصيدته السينية المشهورة: [البسيط]

أدرك بخيلـــك خيـــل الله أندلـــسا ... إنَّ الـــسبيل إلى منجاتهـــا درســـا

وهب لها من عزيز النصر ما التمسـت ... فلـم يـزل منـك عـز النـصر ملتمـسا

و حـــاش ممـــا نعانيـــه حـــشاشتها ... فطالمـا ذاقـت البلـوى صـباح مـسا

يـا للجزيـرة أضـحى أهلهـا جـزاراً ... للحـوادث وأمـسى جـدها تعـسا

في كـــل شـــارقة إلمـــام بائقـــة ... يعـــود مأتمهـــا عنـــد العـــدا عرســـا

و كـــل غاريـــةٍ إجحـــاف نائبـــة ... تثنـى الأمـان حـذار والـسرور أسـا

تقاسـم الـروم لا نالـت مقاسـمهم ... و لا عقائلهـــا المحجوبـــة الأنـــسا

و في بلنـــسة منهـــا وقرطبـــة ... ما ينسف النفس أو مـا ينـزف النفـسا

مـــدائن حلهـــا الإشراك مبتـــسما ... جـــذلان وارتحـــل الإيـــمان مبتئـــسا

كانـــت حـــدائق للأحـــداق مونقـــةً ... فـصوح النـضر مـن أدواحهـا وكـسا

و حال مـا حولهـا مـن منظـر عجـب ... يستجلس الركب أو يستركب الجُلـسا

سرعان ما عاث جيش الكفـر واحربـا ... عيـث البـا في مغانيهـا التـي كبـسا

و ابتـــز بزتهـــا ممـــا تحيفهـــا ... تحيـف الأسـد الـضاري لمّـا افترسـا

فـأين عـيش جنينـاه بهـا خـضراً ... و أيـن غـصن جنينـاه بهـا سلـسا

حمـى محاسـنها طـاغٍ أتـيح لهـا ... ما نـام عـن هـضمها حينـا ولا نعـسا

و رج أرجاءهـــا لمّـــا أجـــاط بهـــا ... فغـادر الـشم مـن أعلامهـا خنـسا

خـلا لـه الجـو فامتـدت يـداه إلى ... إدراك مـا لم تطـأ رجـلاه مختلـسا

و أكثـر الـزعم بالتثليـث منفـردا ... و لـو رأى رايـة التوحيـد مـا نبـسا

صـل حيلهـا أيهـا الملـى الـرحيم فـما ... أبقـى المـراس لهـا حـبلا ولا مرسـا

وأحي مـا طمـست منهـا العـداة كـما ... أحييت من دعـوة المهـدي مـا طمـسا

أيـام سرت لنـصر الحـق مـستبقا ... وبُـت مـن نـور ذاك الهـدى مقتبـسا
و قمـت فيهـا بـأمر الله منتـصرا ... كالصارم اهتز أو كالعـارض انبجـسا
تمحو الذي كتب التجـسيم مـن ظلـم ... والـصبح ماحيـة أنـواره الغلـسا
و تقـضي الملـك الجبـار مهجتـه ... يوم الـوغى جهـرة لا ترقـب الخلـسا
هـذي رسـائلها تـدعوك مـن كثـب ... و أنـت أفـضل مرجـو لمـن يئـسا
وافتـك جاريـة بـالنجح راجيـةً ... منك الأمير الرضـا والـسيد النـدسا
وربـما سـبحت والـريح عاتيـة ... كـما طلبـت بأقـصى شـدة الفرسـا
تـؤم يحيـى بـن عَبْـد الواحـد بـن أبي ... حفـص مقبلـة مـن تربـة القدسـا
ملـك تقلـدت الأمـلاك طاعتـه ... ديناً ودنيـا فغـشها الرضـا لبـسا
مـن كـل غـادٍ عـلى يمنـاه متـسلما ... و كـل صـادٍ إلى نعـماه ماتمـسا
مؤيـد لـو رمـى نجمهـا لأثبتـه ... و لـو دعـا أفقـا لبـى ومـا احتبـسا
تـالله إنَّ الـذي ترجـى الـسعود لـه ... مـا جـال في خلـد يومـا ولا هجـسا
إمـارة يحمـل المقـدار زايتهـا ... و دوللـة عزهـا يستـصحب القعـسا
يبـدي النهـار بهـا مـن ضـوئه شـنباً ... و يطلـع الليـل مـن ظلماتـه لعـسا
مـاضي العزيمـة والأيـام قـد نكلـت ... طلق المحيـا ووجـه الـدهر قـد عبـسا
كأنـه البـدر والعليـاء هالتـه ... تحف من حولـه شـهب القنـا حرسـا
تـدبيره وضـع الـدنيا ومـا وسـعت ... و عرف معروفه واسى الـورى وأسـا
قامت على العـدل والإحـسان دولتـه ... و أنشرت من وجود الجـود مـا رمـسا
مبـارك هديتـه بـادٍ سـكينته ... مـا قـام إلاّ إلى حـسنى ولا جلـسا
قـد نـور الله بـالتقوى بـصيرته ... فـما يبـالي طـروق الخطـب ملتبـسا
يـرى العـصاة وراش الطـائعين فقـل ... في الليـث مفترسـا والغيـث مرتجـسا
و لم يغـادر عـلى سـهل ولا جبـل ... حيـا لقاحـاً إذا وفيتـه بخـسا

فـرب أصـيد لا تلقـي بـه صـيداً ... و رب أشـوس لا تلقـي لـه شوسـا
فظـل يـوطن مـن أرجائهـا حرمـا ... و بـات يوقـد مـن أضـوائها قبسا
بشرى لعبـد إلى البـاب الكـريم حدا ... آمالـه ومـن العـذب المعـين حسا
كـأنما يمتطـي واليمـين يـصحبه ... مـن البحـار طريقـا نحـوه يبـسا
فاسـتقبل الـسعد وضـاحا اسرتـه ... من صفحة فاض منها النور وانعكسا
و قبـل الجـود طفاحـا غواربـه ... من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
يـا أيهـا الملـك المنـصور أنـت لهـا ... عليـاء توسـع أعـداء الهـدى تعسا
و قـد تـواترت الأنبـاء أنبـك مـن ... يحيـى بقتـل ملـوك الـصفر أندلسا
طهـر بـلادك مـنهم إنهـم نجـس ... و لا طهـارة مـا لم نغـسل النجـسا[1]
و أوطـئ الفيلـق الجـرار أرضـهم ... حتـى يطـأطئ رأسـا كـل مـن رأسـا

أقوال العلماء فيه:

١- ذكره أبو جَعْفَر بن الزُّبَيْر وقال: هو محدث بارع، حافل، ضابط، متقن، وكاتب بليغ وأديب حافل حافظ. وقال أيضا: وكـان متفننـا متقـدما في الحـديث والآداب سـنيا متخلقا فاضلا قُتل صبرا ظلما وبغيا في أواخر عشر ستين وست مئة.

٢- وقال الذهبي: كان بصيرا بالرجال المتأخرين، مؤرخا، حلو التترجم، فصيح العبارة، وافر الحشمة، ظاهر التجمل، من بلغاء الكتبة. ووصفه الذهبي في " تذكرة الحفاظ " بالعلامة البليغ المنشئ الحافظ المحدث وقال: ذكرته في الممتع.

٣- قال الغبريني في " عنوان الدراية " : ولو لم يكن له إلا كتاب اللجين في مراثي الحسين لكفاه في ارتفاع درجته وعلو منصبه وسمو رتبته فكيف لا وله تصانيف دونه.

---

(١) " نغسل النجسا " هكذا ثبت بالنون كما رأيته في بعض النسخ العتيقة وهو أصوب مما وقع بخط بعضهم بالتاء لأن مثله لا يصلح للمخاطبات السلطانية ولم يشتهر عند أكثر الناس إلاّ بالتاء والصواب ما قدمته من أنه بالنون والله اعلم.

وقال عنه أيضاً: لا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام إلا وله فيه رواية إما بعموم أو بخصوص.

٤- وقال عنه ابن خلدون في "تاريخه" بعد أن وصفه بالحافظ: كان علامة في الحديث ولسان العرب بليغاً في الترسيل والشعر.

وفاته:

قُتِلَ مظلوماً بتونس على يد صاحبها في يوم الثلاثاء العاشر من محرم سنة ثمان وخمسين وستمائة؛ لأنه تخيل منه الخروج، وشق العصا، وقيل: إن بعض أعدائه ذكر عند صاحب تونس أنه ألف تاريخاً، وأنه تكلم فيه في جماعة، فلما طُلب أحسَّ بالهلاك، فقال للغلام: خذ البغلة، وامض بها إلى حيث شئت فهي لك.

قال قاضي القضاة ولي الدين ابن خلدون في تاريخه الكبير الموسوم بـ"ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" ما نصه: وسيقت مجلدات كتبه وأوراق سماعه ودواوينه فأحرقت معه.

وقال عنه عَبْد الحي الكتاني في كتاب "فهرس الفهارس" بعدما ساق خبر قتله وحرقه: وهذه والله شنعة ما فوقها شناعة، ورزية ما بعدها رزية، إلا قتله ثم حرقه، وهو عندي عديل ابن الخطيب وابن خلدون في الإنشاء وملكة الشعر، ويفوقهما بصناعة الحديث ومعرفته معرفة تامة ليس للتونسيين من يشاركه أو يضارعه فيها.

وصف النسخة الخطية

اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب الطيب المبارك على نسخة مخطوط موجودة في مكتبة مدريد الوطنية رقم (٤٨٩٦)، وقد نُقلت عن نسخة مكتبة الاسكوريال، وعدد أوراقها (١٨٠) ورقة، وفي كل صفحة (١٩) سطرا، وقد كُتبت بخط جميل وواضح، وإن كان فُقد منها بعض الأوراق الأولى، وقد نُسخت بخط أبي عبيد الله علي بن مُحَمَّد الكفاد الأَنْدَلُسي، وانتهى مِنْ نسخها في الثالث عشر من شعبان سنة ٩٩٠هـ

ومن المعلوم أن نسخة الاسكوريال هي أقدم نسخة لكتاب الحلة السيراء بعد أن فُقدت النسخة الأصلية بخط ابن الأبار نفسه، وهي موجودة في فهرست غزيري برقم(١٦٤٩)، وعدد أوراقها (١٩٧)، والمخطوط ناقص الأول.

منهج التحقيق

وقد كان عملي في الكتاب على النحو التالي:

١- قمت بمطابقة المطبوع على المخطوط وفقا للقواعد العلمية، من تصويب للأخطاء، ووضع علامات ترقيم النص حتى يسهل قراءته.

٢- قمت بتخريج الآيات القرآنية، والدلالة على مواضعها.

٣- قمت بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في الكتاب.

٤- قمت بالإحالة في كتب التراجم على أسماء الشعراء الذين ذكرهم المؤلف.

٥- قمت بالتعليق على المواضع التي تحتاج إلى زيادة شرح وإسهاب وتوضيح.

٦- صنعت مقدمة لخصت فيها الضروري والمهم حول الشعر وصناعته.

٧- صنعت فهارس تفصيلية للكتاب.

وأخيرًا: أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب القارئ والسامع والناظر فيه، وكل من شارك فيه ولو بنصح، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه وسلم.

اللوحة الأولى للمخطوط

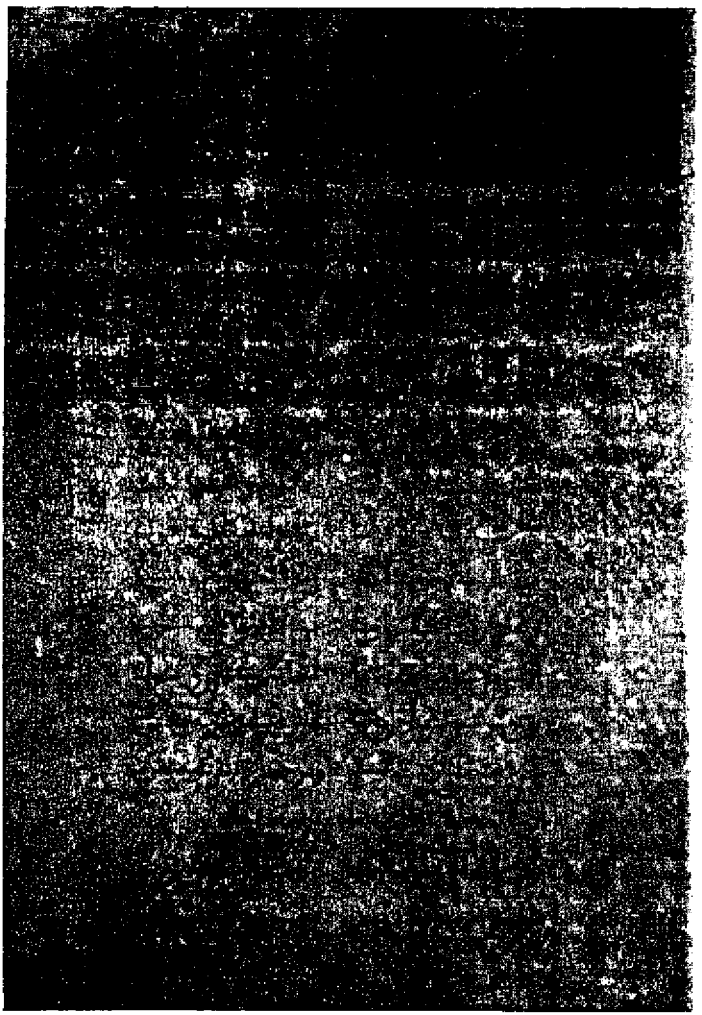

٤٤ ..... الحُلَّةُ السَّيْرَاء فِي أَشْعَارِ الأُمَرَاءِ

اللوحة الأخيرة للمخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف](١)

بنـــى لي المجـــد آبـــاء كـــرام ... ورثنـــا مجـــدهم باعـــاً فباعـــا
وهـــذبني الإبـــاء ففـــات طـــرفي ... وكـــل بعـــد يجـــري مـــا اســـتطاعا

وقبلها مما يصل حبلها ويصف فضلها:

ومـــا للنـــاس منـــا غـــير رعـــي ... يفيـــدهم رفاهـــاً وانتفاعـــا
فيمـــنعهم ومـــا شـــعبوا مـــضاماً ... ويوســـعهم ومـــا ســـغبوا انتجاعـــا

ولهم رضي الله عنهم، وسمعت ذلك منهم:

أجـب داعيهـا فالنجيـب يجيـب ... وشـب لظاهـا فالنخيـب يخيـب
وشم عزمة لا يغمز العجز متنهـا ... فذو العزم في اليوم الصعيب يصيب
ولا تبتـــغ العليـــاء إلا بـــأبيض ... لغربيـــه في هـــام الكـــماة غـــروب
وأســـمر غـــر شـــيب الوقـــع رأســـه ... ألا إنـــما بعـــد القـــشيب مـــشيب
وإن شئت قلت النجم تـوج رأسـه ... فـلاح لـه بـين القلـوب ثقـوب
ينـضنض صـلاً ثـم يهـوى كأنـه ... رشـاء لـه قلـب الكمـى قليـب
وصفراء ريتها الجيـوب وراوحـت ... ذوائبهـا فـوق الجبـوب جنـوب
إذا عـيج متناهـا أقيمـت شـباتها ... فمنهـا سروب لا يـرى ورسـوب
فإن سدكت بالكف أوفل خطوهـا ... فخطـو بنيهـا في الحـروب رحيـب

---

(١) هناك خرم في أول النسخة الخطية، وكذلك في كل نسخ الحلة السيراء، لأن النسخة التي بيد المؤلف مفقودة، وأقدم نسخة للكتاب هي نسخة الاسكوريال وهناك خرم بأولها.

وأجرد يستجلى بأوضاعه الوغى ... وقد جنها يوم الركوب عكوب

إذا ما استحر الضرب واشتجر القنا ... بدا وهو في حـــــال [.....].

له من سعالى[1] الجن خلق مطهم ... يروع، ومن هوج الرياح هبوب

بتلك ينال الوتر لو حال دونه ... سهوب، وحالت عن مداه لهوب

فدع عنك أبناء الزمان فكلهم ... له عند تمحيص الغيوب غيوب

فلا توردنه وردك الصفو إنه ... شروب وعند الحادثات سروب

[....][2] ساوى الرجال فباسم ... له عند هبات الخطوب خطوب

[....][3] قربى يعرد هابياً ... ويأى إذا الحق النؤوب يؤوب

[....][4] إلى الخليل محلة ... وقد جعلت [.....][5]

[....][6] يديك فإنه ... سواء قريب في الورى وغريب

ألا فاستعن واستغن بالله إنه ... لفتح بتقدير الرقيب قريب

ولهم - أيدهم الله - في استقبال حضرتهم العلية من بعض غزواتهم الميمونة:

تقر جفون عينك بالقرار ... ومن شرط الهوى رعى الذراري

ألاح البرق معترضاً فغارت ... نجوم الأفق من ماء ونار

خفي يسري وظل الدمع يجري ... فواحربا ه من سار وجار

وهاب البدر أن يفري دجاه ... فمال عن الشرار إلى السرار

---

(١) سعالى: جمع السعلاة، وهي أخبث الغيلان، وقيل: هي الأنثى من الغيلان [لسان العرب: ١١/ ٣٣٦].

(٢) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل.

(٣) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل.

(٤) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل.

(٥) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل.

(٦) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل.

وساءل مسنداً يرويه عني ... فحدثه الزفير عن إدكار
سقى أعلام تونس فالحنايا ... فمقتبل العشية والعرار
فواكبداه من شوق تناءت ... نهايته على قرب المزار
وأبرح ما يكون الشوق يوماً ... إذا دنت الديار من الديار

ومن قلائدهم المزرية بقلائد العقيان، المربية على فرائد الجمان:

وحوراء تستعلي بنهدين أشرعا ... ولا غرو أن يدعو هواها فأتبعه
تقول، وقد رقت لما بي: أجازع ... وأنت جرئ والأسنة مشرعه؟
فقلت لها: جفناك عزا تجلدي ... ونهداك هدا نفس هيمان موجعه
وما زلت ألقي القرن يعسل رمحه ... فمن لي بمن يلقى الفؤاد بأربعه؟

صدر هذا عنهم، دامت سعادتهم. وقد أنشد بمجلسهم العلي للقاضي أبي بكر بن العربي في مداعب له من فتيان الملثمة هز رمحه عليه وأومأ به إليه:

يهز على الرمح ظبي مهفهف ... لعوب بألباب البرية عابث
فلو كان رمحاً واحداً لاتقيته ... ولكنه رمح وثان وثالث

كذا قرأت في ديوان شعرهم، أدام الله تأييد أمرهم. وهما عندي للقاضي أبي مُحَمَّد عَبْد الحق بن غالب بن عطية، أنشدنيها القاضي أبو سليمان داود ابن سليمان بن حوط الله الأنصاري الحارثي بمدينة بَلَنْسية، وهو إذ ذاك يتولى قضاءها. قال: أنشدنا الشيخ أبو الحسين سراج بن عَبْد الله العثماني -مرات- للفقيه القاضي أبي مُحَمَّد عَبْد الحق بن عطية[1]؛ وذكر

---

(١) عَبْد الحق بن غالب بن عَبْد الرَّحْمَن بن غالب بن تمام بن عَبْد الرؤوف بن عَبْد الله بن تمام بن عطية المحاربي، الغرناطي، المالكي، (أبو مُحَمَّد) عالم مشارك في الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والادب. ولي القضاء بمدينة المرية، ورحل إلى المشرق، وتوفي، بلورقة في ١٥ رمضان.

من مؤلفاته: الجامع المحرر الصحيح الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، وبرنامج ضمنه مروياته واسماء شيوخه. [معجم المؤلفين:٥/٣٩].

البيتين، إلا أن صدر أولها في هذه الرواية: (يهددني بالرمح ظبي مهفهف)، وصدر ثانيهما: (فلو كان رمحاً واحداً لاتقيته)، وباقيهما سواء. ولمن كان منهما ذلك فقد عدل به عن جادة الإجادة والزيادة.

ومن لزومياتهم السنية في غزليلتهم السلطانية:

بدت لك في ثوب يشف منجم ... أزيرق يا لله للحسن! أزرقا

ولاحت، وبدر الأفق في الأفق كامل ... فلم أدر أي راعني حين أشرق

خلا أنه لما رأى حسن وجهها ... تأنى قليلاً حين شام فأبرقا

ودونهما صفو الغدير مسلسلاً ... فأقسم لولا رقة الوصل أحرقا

ولما رنا نحو السجنجل[1] وجهها ... أطل على متن الغدير فأطرقا

وزرت عليه الشهب ثوب سمائه ... فقارب في التشبيه منها وأغرقا

ونازعها ثوباً ولوناً ورفعة ... وبعداً وإشراقاً ووجهاً ترقرقا

ومن رفيع الرصف[2] وبديع الوصف قولهم، لا زال يجاري الأقدار عدلهم ويباري الأمطار طولهم:

أعد نظراً حيث الرياض كأنها ... خدود الغواني أو قدود الكواعب

تميل وليست بين كأس وقينة ... ولكنها بين الصبا والجنائب

وسال نمير الماء بين أخضرارها ... فجاء كمثل الفرق بين الذوائب

وإلا كما شق الكنهور بارق ... وإلا كمثل الصبح بين الغياهب

قد أطردت فيه المذانب دائماً ... ولم تر جسناً كأطراد المذانب

---

(١) السَّجَنْجَلُ: المرآة، وهو رومي معرب [مختار الصحاح:١/ ١٢١].

(٢) الرَّصْفُ: ضَمُّ الشيء بعضه إلى بعض ونَظْمُه، رَصَفَه يَرْصُفُه رَصْفاً فارْتَصَفَ وتَرَصَّفَ و تَراصَفَ. قال الليث: يقال للقائم إذا صَفَّ قدميه رَصَفَ قَدَمَيْهِ، وذلك إذا ضَمَّ إحداهما إلى الأُخرى. وتَراصَفَ القومُ في الصفّ أي قام بعضُهم إلى لِزْقِ بعض. [لسان العرب:٩/ ١١٩].

وللنرجس النضر أصفرار تخاله كشمس أصيل بين بيض السحائب
يدب إليك الحسن في جنباتها بعقرب أصداغ من الآس لاسب
وللياسمين الغض في خضر بسطها نثائر در أو سبائك ساكب
وللسوسن المبيض إصغاء آلف يحن فيحنو خاشعاً نحو شارب
وقد كللت أغصان نارنجها، فقل مجامر تبر جامد غير ذائب
وعطر منها النشر ما بلل الندى فنمت بأنفاس الرياح الغرائب
وللماء في الدولاب إن رمت وصفه سهام قسى أو مخاريق لاعب
تضمن سقى الروض رفهاً يعله وفاء فعد القول عن قوس حاجب
معطرة الأردان يفعم نفحها يحييك عرف الطيب من كل جانب
سماء، وجرى الماء فيها مجرة ومن زهرها المفتر زهر الكواكب
فدونكها تختال زهواً ونضرة وترفل تيهاً في برود العجائب

ولهم - خلد الله سلطانهم - في طبق مملوء نثائر زهر النارنج والخابور، وأكثر هذا التشبيه على البديهة:

بعثتها وذكى العرف ألحقها بردين من وضح الإصباح والشفق
كأنما الزهر والخابور جزعه شذر تناثر في در من العنق
قد راق منظره حسناً للتفت ورق مخبره عرفاً لمنتشق

ولهم - ظاهر الله نعمه لديهم - مما كتبته بين الكريمتين يديهم:

خذها كما تم عرف الروض بالسحر وأيقظ الطل ربا نائم الزهر
حمراء ترفل في أثواب بهجتها تفتر عن لؤلؤ عذب وعن أشر
زففتها ورواق الليل منسدل كأنها شفق في هالة القمر

ومن ألغازهم؛ وسمعت منهم رضي الله عنهم:

سحرت أعين الجآذر لبي واستباحت حمى فؤادي وقلبي

[....][1] منهـــــا أشـــــتباه فـانظرن التـصحيف مـن بعـد قلـب

وقد استوفوا حروف المعجم في هـذا البـاب، فـأتوا - أيـدهم الله - بـما فيـه عـبرة لأولى الألباب.

ولهم في الرثاء، أدام الله أيامهم كما جعل مفاتيح الأقاليم سيوفهم وأقلامهم:

تصبر فـإن الـصبر أولى بـذي حجـر وإن كان حجـراً فـالملام إلى الحجـر

وما زالت الأيـام تغـدو عـلى الفتـى فطوراً على بشر وطـوراً عـلى بـسر

وإن سـالمت، والظلـم منهـا سـجية فـلا بـد يومـاً أن تغـر وأن تغـري

مـري الحـزن دمعـي أن أمـر حبالـه وكـان قـديماً لا يمـر ولا يمـري

وعهدي بهـذا الـدمع يـا عـين وافيـاً فهل لكِ في الغدر المبرح من عـذر؟

ألا مـن لعـين لا ينهنـه غربهـا ألا من لسحر لا يمل من السحر؟

ألا تلك شمس الجو في الدو فأعجبوا ألا تلكـم إدمانـة العفـو في القفـر

أأسلو وهذا شخصها حشو مقلتي وأنسى وما تنفك مني عـلى ذكـر؟

لـئن ضـم منـك اللحـد ذاتـاً زكيـة لقد حنيت منى الـضلوع عـلى جمـر

سـأبكيك مـا أنـت فقيـدة بكرهـا وحنـت إلى وكـر مطوقـة النحـر

أطارحها شـجوي فيسعد شـجوها فتحسبنا إلفي مـصاب لـدى وكـر

ومـالي ومـا للعيـد لـولا تحفـل يكلفنـي مـا لا أطيـق مـن الـصبر

فمـن كـان ذا هـدى وهـدى لعيـده فعندي هـدى مـن مـدامعي الحمـر

يغادونهـا قربـي لنحـر ثلاثـة ودمعي من تسكابه الـدهر في بحـر

وعنـدي ولا رد زفـير مـردد تهـد لظـاه جانـب البـشر

وتـصديق إيـمان وإقـرار مـوقن وتسليم مربوب لذى الخلق والأمـر

---

(١) ما بين المعكوفتين بياض في الأصل.

ومن تصنيف لهم في الزهد جليل، هو على أنفرادهم في الكمال وسحر الكلام أوضح دليل:

يعجل الإنسان بالشيء، وهل ... خلق الإنسان إلا من عجل؟
ولذى العدل قضاء في الورى ... يتقاضاه كتاب وأجل
إن ظفر الليث يدمي من ردى ... مثل خد الخود[1] يدمى من خجل
وأخو الغفلة في غفلته ... إن بكت ورقاء غنى وأرتجل

وإنما أورد منه الفرائد، وأقصد إليه من القصائد، وها هي تضيق عنها المهارق، وتضيء منها المغارب والمشارق، وإنما هذا إلماع بما أعوز العلماء، وإسماع لما أسكت الحكماء.

ولما ظفرت من هذا المقصود الأحمد، وسبقت إليه سبق الجواد إذا استولى على الأمد، قصرته على ملوك إفريقية وبلاد المغرب المضافة إليها، وقدمت القادمين في المائة الأولى من السلف الأول عليها، لأنها من أوائل فتوح الإسلام، ثم من منازل بدر التمام مولانا الخليفة الإمام، أدام الله لهم نصر الألوية والأعلام.

وفي المائة الثانية صارت الأَنْدَلُس دار إيمان، فواليت ذكر ولاتها من ذلك الزمان، ليوقف على جلالة شأنهم، ويعرف تمكن محلهم من البلاغة ومكانهم، وذكرت أبناءهم، واختصرت أنباءهم، هربا من التطويل، ورهباً للتثقيل، إلا نكتاً لها بانتخابها أحسن المواقع وعيوناً هي باقتضابها أجول في المحافل وأولج في المسامع. وربما عرض ما يدعو إلى البسط فانتقض حكم هذا الشرط، ولا غرو أن أواقع المحذور، فللكلام اضطرار يبيح المحظور.

وأبرزته مسوقاً على الحقب، منسوقا بحسب الرتب؛ أعين للصدور صدر كل مائة، وأبين من تميز في جماعة أو تحيز إلى فئة، ليستوفي المتأدبين، حتى من المتوثبين.

والذين ما عثرت على أشعارهم، أفردت باباً لأخبارهم، ولم أعرض لمن أعرضت عنهم الدولة الحفصية بالخلعان، وانتزعت ما كان بأيديهم تراثاً لها من الملك والسلطان.

---

(١) الخَوْدُ: الفتاة الحسنة الخَلق الشابة ما لم تصر نَصَفاً؛ وقيل: الجارية الناعمة، والجمع خَوْدات وخُود، بضم الخاء، مثل رمح لَدْن ورِماح لُدْن ولا فعل له.[لسان العرب:٣/ ١٦٥].

ثم الاسم الذي من خصائصه التأمين والتأمير وأشبهه النضير والمشرع النمير حضرة مولانا الأمير الأسعد الأطهر الأرضى أبو يحيى ولي عهد المؤمنين، وعهد الولي في متتابعات السنين، والملي وقد مكارم الآباء بإنجاب كرام البنين.

أجهد في الاستظهار على شكر نعمته، وأجهر آناء الليل وأطراف النهار بأن يكون العمل خادم النية في خدمته. وأقصى المأمول أن تأذن له سيادته في القرب من سدته، وتقابل وفادته بالقبول ليسعد مداه بسعادة مدته. أبقاه الله ولواؤه منصور، وكرم الخلال فيه محصور، وشرف الكمال عليه مقصور، والعيون والقلوب إليه ميل وصور، بمنه.